صالح بن قربة

عبد المؤمن بن علي

مؤسس دولة الموحدين

شخصيات لها تاريخ

المؤسسة الوطنية للكتاب
ENTREPRISE NATIONALE DU LIVRE

موقع طلبة التاريخ
تلمسان

صالح بن قربة

عبد المؤمن بن علي

مؤسس دولة الموحدين

المؤسسة الوطنية للكتاب
3، شارع زيروت يوسف، الجزائر

© رقم النشر 2192/86
المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر 1991

الفصل الأول
المولد والنشأة

يتصل نسب عبد المؤمن بن علي بقبيلة «كومية» التي تعتبر احدى بطون بني فاتن الذين يجتمعون بدورهم مع قبيلة زناتة في ضرى ابن زجيك من سلسلة البربر البتر .

ولد عبد المؤمن بن علي في قرية صغيرة تسمى «تاجرا» تقع بالقرب من مدينة «ندرومة» وعلى بعد ثلاثة أميال من مرسى هنين ، وسط منطقة غنية بالغابات ، وهي تشبه الحصن في الجبل الذي يشرف على «هنين» من الناحية الشرقية .

يقول عبد الواحد المراكشي موضحا تاريخ ميلاده «كان مولده في آخر سنة 487 . في أيام يوسف بن تاشفين ، وكانت وفاته في شهر جمادي الآخرة سنة 558» . فتكون اذا سن عبد المؤمن ــ حسب رواية هذا المؤرخ ــ احدى وسبعين سنة

أما المؤرخ ابن أبي زرع فانه لم يشر الى تاريخ الميلاد ، بل ذكر سنه عند وفاته : حيث : كانت سنه يوم توفي ثلاثا وستين سنة .. وقيل أربع وستون ذكره ابن صاحب الصلاة في كتاب «المن بالامامة» ويتفق المؤرخون جميعا على أن وفاة عبد المؤمن كانت سنة 558 هـ فيكون تاريخ ميلاده ـــ حسب قول ابن أبي زرع ـــ سنة 494 أو 495 هـ .

وذكر بعض المؤرخين بأن والده كان يشتغل بالقضاء ، وذا دراية بالأدب ، وربما نسب هؤلاء هذه الوظيفة الى ولده ـــ تكريما وتشريفا للخليفة عبد المؤمن بن علي الذي انقادت له الدنيا ـــ رغبة ورهبة .

وحسب طائفة أخرى من المؤرخين ، فقد كانت مهنته صنع الأواني الفخارية ، وقد يكون هذا الرأي هو الأقرب الى الحقيقة والواقع .

واختلف المؤرخون في نسبه ، فمنهم من يجعله متصلا بالرسول صلى الله عليه وسلم اتصالا وثيقا ، فيربطه بالنبي في مضر بن نزار ، ثم ينسبه الى آل البيت عن طريق الأدارسة . وفريق آخر ينسبه الى البربر مع ربط اتصاله بمضر بن نزار في شيء من ذلك . واكتفى البعض الآخر بانتسابه الى البربر لا غير .

فالبيدق الذي ينسب عبد المؤمن الى مضر بن نزار يقول : «والخليفة رضي الله عنه ـــ من ولد سليم بن منصور بن قيس بن عيلان بن مضر جد النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ

لاشك في ذلك ، نزل أجداده بساحل تلمسان ، فرارا من بعض الفتن بالأندلس .. وجاور بعض مطماطة اخوة زناتة . فنسب ولده اليهم بالجوار والحلف هذا مما لاشك فيه عند أهل العناية بهذا الشأن » .

ونستخلص من نص البيدق ـــ جعل عبد المؤمن عربيا مضريا ، هاجر أجداده من الجزيرة العربية الى الأندلس ، ثم نزح جده الأول الذي استقر بالمغرب الأوسط فارا من الأندلس من الفتن . ومن ثم جاور بعض قبائل المغرب الأوسط محتميا بها ، فنسبت ذريته الى البربر بالجوار والحلف .

وحسب رواية عبد المواحد المراكشي ـــ فان عبد المؤمن نفسه كان ينفي نسبته الى أهل المغرب ويقول : «لست منهم وانما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار معد بن عدنان ، ولكومية علينا حق الولادة بينهم والمنشأ فيهم وهم الأخوال» .

ويؤكد المراكشي على هذا النسب فيقول بأنه «أدرك من أولاده وأولاده ينتسبون لقيس عيلان بن مضر» .

وذكر ابن أبي زرع الذي يتتبع هذا النسب فيقول : «هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي بن يعلي بن مروان بن نصر بن عامر بن الأمير بن موسى بن عون الله بن يحيي بن ورزايع بن صنطور بن نذور بن مطماط بن هود بن مادغيس بن بربر بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان» .

ويعلق على هذه الرواية السابقة فيقول : «هكذا أثبت نسبه جماعة من المؤرخين وتعرض ابن خلدون الى هذه النقطة في هذه

العبارة : « ويذكر بعضهم أن في خط أبي عبد الواحد المخلوع بن يوسف بن عبد المؤمن ما يدل على أنه مصنوع ، اذ هذه الأسماء ليست من أسماء البربر ، وانما هي كما ترى كلها عربية والقوم كانوا من البربر » .

نشأته وطلب العلم :

نشأ عبد المؤمن منذ طفولته محبا للقراءة والدرس ، ألحقه والده بكتاب القرية (تاجرا) حيث تعلم القراءة والكتابة ، ثم أخذ في حفظ القرآن الكريم ، والى جانب ذلك تعلم بعض العبارات كالصلاة والصوم والزكاة وألم بشيء من السيرة النبوية الشريفة .

ولما كان والده كثير التردد على مدينة تلمسان بحكم تجارته في الأواني الفخارية وكثيرا ما كان يختلف الى المسجد للصلاة والسماع الى الدرس . وكان جامع تلمسان في ذلك الوقت مركزا دينيا للعبادة ومدرسة لتعليم الدروس الدينية واللغوية ــ شأنه في ذلك شأن باقي المساجد الكبرى في العالم الاسلامي ــ فلاحت له فكرة الحاق ولده بهذا المسجد ليتابع الدرس والتحصيل ــ هكذا شب عبد المؤمن محبا للعلم والمعرفة يلازم المساجد لتلاوة القرآن . وذكر ابن خلدون من أساتذته بتلمسان ابن صاحب الصلاة وعبد السلام البرنسي . امام عصره في علوم الفقه والحديث والتفسير والكلام» .

وأقبل عبد المؤمن على طلب العلم اقبالا شديدا بروح طموحة وحماس فياض ، وتزود من مواد الدراسة ما يؤهله الى

الرحلة الى طلب العلم ، ولما بلغ نحو العشرين من عمره اعتزم الرحلة الى المشرق للدراسة والتحصيل أسوة بمشاهير علماء المغرب في عصره .

أسطورة لقاء عبد المؤمن بالداعية ابن تومرت

ولكن القدر رسم مستقبله المحتوم اذ التقى عبد المؤمن بابن تومرت على غير موعد . وتبدأ قصة لقائه بهذا العالم بخروجه من قرية (تاجرا) بعد وفاة والده . بصحبة عم له يسمى «يعلو» بقصد السفر الى المشرق من ميناء «بجاية» فنزلا باديء ذي بدء في بلاد متيجة حيث أقاما بها عدة أيام ، ثم ارتحلا حتى وصلا بني زلدوي .. ووصلا أخيرا الى بجاية . ونزلا في مسجد «الريحانة» فلما صليا الصبح سمعا الناس يقولون سيروا بنا نحو الفقيه فقال عبد المؤمن : «ومن الفقيه» ؟ فقالوا له : «السوسي» هو عالم المشرق والمغرب وليس كمثله أحد من الناس . وقد سمي ابن تومرت : «العالم السوسي بعد عودته من المشرق» .

«فقال لعمه يا عم سر بنا نحوه ان شاء الله ، ولما وصل الخليفة أرض بجاية وفي الليل قرأ حزبه وصلى ورده في تلك الليلة ثم نام فرأى الرؤيا بعينها الا أن الناس يبايعونه فلما أفاق أعلم عمه بها فقال له أكتم هذا الأمر فانه رأت أمك وهي بك حامل كأن النار تخرج منها فتحرق المشرق والغرب والقبلة والجوف فعلى

لها المعبر بتلمسان يا لهذه المرأة من مولود يكون أمره يأخذ المشرق والمغرب والقبلة والجوف ، ولكن أكتم هذا الأمر ولا تعرف به انسانا وكذلك قال لي أبوك علي ولقد رأيت في أمرك موعظة كنا نحصد الزرع وأمك بك حامل » .

فاتجه عبد المؤمن الى « ملالة » رغبة في سماع هذا الأستاذ الذي اثنوا عليه لفصاحته وعلمه[1] .

وكانت « ملالة » هي البلدة التي لجأ اليها ابن تومرت بعد أن طرد من مدينة « بجاية » وهناك انضم في درس السوسي وتم لقاء ابن تومرت بالرجل الذي قدر له أن يكون خليفته وأن يصبح حامل لواء دعوة الموحدين ومؤسس دولتهم .

ولأهمية هذا اللقاء ندع البيدق يروي لنا قصة هذا اللقاء[2] على الرغم مما بها من مبالغة وسذاجة ، فهي وثيقة تاريخية لشاهد عيان يقول : « لما جد (عبد المؤمن) السير نحو الامام ، اجتمع مع الطلبة في طريقه فاصطحب معهم حتى بلغ باب المسجد فرفع المعصوم (ابن تومرت) رأسه فوافقه أمامه فقال له : ادخل يا شاب . فدخل ، فأراد أن يقعد في جملة الناس ، فقال له الامام المعصوم : ما اسمك يافتى ؟ عبد المؤمن . فقال له المعصوم : وأبوك علي ؟ فقال : نعم فتعجب الناس من ذلك فقال له : يا شاب من أين اقبالك ؟ فقال له : من نظر تلمسان من ساحل كمومية . فقال له المعصوم . من تاجرا أم لا ؟ فقال له : نعم فتعجب الناس فقال له المعصوم .

أين تريد يا فتى ؟ فقال : يا سيدي ، نحو المشرق ألتمس فيه العلم . فقال له المعصوم : العلم الذي تريد اقتباسه بالمشرق قد وجدته بالمغرب » .

ثم يجلس عبد المؤمن أمام ابن تومرت في درسه برغبة صادقة في العلم وبشوق متدفق الى الوقوف على الآراء الحديثة فيه ، ويمضي الوقت وينتهي الدرس .

ومهما يكن من اقناع ابن تومرت وسحر بيانه وتأثيره في الدرس ، فان ذلك كله ليس كافيا في أن يثني عبد المؤمن عن الرحلة الى المشرق ، خصوصا وأن تلك الرحلة الدراسية سوف تكسبه علما ومجدا وشهرة وتجعله في مصاف مشاهير علماء المغرب أنذاك .

وأدرك ابن تومرت هذه الحالة ، ورأى أنه لكي يجتذب هذا الطالب الطموح الذي تتطلع نفسه الى مزيد من العلم والمعرفة أن يسلك طريقا آخر لكي يؤثر فيه . ولندع البيدق مرة أخرى يروي لنا كيفية استيلاء ابن تومرت علي عبد المؤمن بن علي حيث يقول : «ولما هم عبد المؤمن بالانصراف قال له المعصوم : تبيت عندنا يا شاب ؟ فقال له : نعم يا فقيه . فبات عندنا ، فلما جن الليل أخذ الامام المعصوم بيد الخليفة (عبد المؤمن) وسارا فلما كان نصف الليل ، نادى المعصوم ، يا أبا بكر . أرفع لي الكتاب الذي في الوعاء الأحمر فرفعته له . وقال لي : اسرج لنا سراجا فكان يقرأه على

الخليفة ، من بعده وأنا حينئذ ماسك السراج اسمعه يقول : « لا يقوم الأمر الذي فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين » .

فبكى الخليفة (عبد المؤمن) عند سماع هذا القول .

وقال : يافقيه : ما كنت في شيء من هذا ، انما أنا رجل أريد ما يطهرني من ذنوبي فقال له المعصوم : انما تطهيرك من ذنوبك صلاح الدنيا على يديك[3] .

ثم رفع له الكتاب وقال : طوبي لأقوام كنت أنت مقدرهم ، وويل لقوم خالفوك أولهم وآخرهم . أكثر من ذكر الله ، يبارك لك في عمرك ، ويهديك ويعصمك مما تخاف وتحذر . .

وكان (عبد المؤمن) يقرأ على الامام المعصوم ، وكان أفهم الطلبة ، وكان اذا أراد النوم ، يقوم له المعصوم ، ينام من تنتظره الدنيا ؟ فلم يزل على تلك الحال أشهرا » .

لكن لابن خلدون رأي آخر مخالفا تماما لما أورده البيدق ، وملخصه أن عبد المؤمن ابن علي كان طالبا في تلمسان .. أوفد الى ابن تومرت من قبل زملائه الطلبة ليطلب اليه أن يحل محل أحد معلميهم الذي كان قد توفي قبل ذلك بقليل. ومهما يكن من أمر ، فيمكن استخلاص أمرين . وأولهما : أن سمعة أبن تومرت قد أخذت في الانتشار في كل ناحية . وثانيهما : طول مدة اقامته في ملالة لأن وسائل الاتصال كانت بطيئة جدا في ذلك الوقت ، ولكي تنتشر هذه الشهرة بهذه الطريقة ، فان ذلك يحتاج على الأقل الى فترة طويلة .

ومن الصعب جدا معرفة أي الرواية أقرب الى الصواب رواية البيدق المعاصرة بما فيها من مبالغات . أم أن تفسير ابن خلدون هو الأقرب ، لأنه يتمشى والمنطق . ومهما يكن من أمر هذه الروايات ، فان ابن تومرت نجح في اقناع عبد المؤمن عن التوجه الى المشرق في طلب العلم . فماذا يكون البديل في مقابل ذلك المجد الخالد . البديل هو ملازمة عبد المؤمن أستاذه يطلب عليه العلم ويشاركه في الدعوة الى التوحيد والنهي عن المنكر والأمر بالمعروف ببلاد المغرب ، ويقاسمه مرارة الحرمان والمطاردة ، والحرب ضد المرابطين ، ثم فجأة ترشحه الى قيادة الموحدين ليكمل الجهاد ويؤسس دولة جديدة استطاعت أن توحد بلاد المغرب الاسلامي لأول مرة في تاريخ المغرب .

وهكذا قُدِّر للبطل عبد المؤمن أن يسجل في التاريخ أروع صفحات البطولة والمجد .

الهوامش

1 — وفي ملالة تركه عمه «يعلو» وعاد الى «ناجرا» ليواصل السير بمفرده الى لقاء ابن تومرت .

2 — يروي ابن خلدون سبب خروج ابن تومرت من بجاية وقصة لقاءه بعبد المؤمن فيقول : «ولما دخل ابن تومرت بجاية . وبها يومئذ العزيز ابن الناصر بن علناس بن حماد من أمراء صنهاجة فأغلظ له ولأتباعه في النكير (لارتكابهم المنكر) ، ونعرض يوما لتغير بعض المنكرات في الطريق فوقعت بسببها هيعة أنكرها السلطان والخاصة ، وائتمروا به فخرج منها ولحق بملالة .. وهناك لقيه كبير صحابته عبد المؤمن بن علي» العبر ج 6 ص 467 .

3 — هذه العبارة تعتبر من مبالغات البيدق لأن صلاح الدنيا يقوم به المهدي بن تومرت لا تلميذه .

الفصل الثاني

دور عبد المؤمن الحربي في عهد ابن تومرت

أصبحت مدينة «تينملل» القاعدة الحربية لاتباع المهدي بن تومرت ، وكانت طاعة المصامدة للمهدي تزداد وتكثر واشتد حبهم له ، وتعظيمه يتأكد من يوم لآخر ، الى أن بلغوا في ذلك الى حد لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر الى ذلك من غير ابطاء .

وقد ساعدهم على ذلك ما في طباعهم من خفة سفك الدماء عليهم ، وهذا أمر جبلوا عليه ، واقتضاء ميل اقليمهم كما تجمع كتب المؤرخين .

بداية الصراع بين المرابطين والموحدين

بدأت الدعوة الموحدية تظهر في ثوبها العسكري بعد أن فكر المهدي في القضاء على المرابطين التي هي في نظره دولة بدعة

وخروج عن الدين . وبدأت الاشتباكات الحربية في حياة الزعيم ابن تومرت فيذكر المراكشي أنه «لما كانت سنة 517 هـ جهز جيشا عظيما من المصاورة جلهم من أهل تينمل ، مع منْ انضاف اليهم من أهل سوس ، وقال لهم : أقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين ، فادعوهم الى اماتة المنكر ، واحياء المعروف ، وازالة البدع ، والاقرار بالامام المهدي المعصوم ، فان أجابوكم فهم اخوانكم لكم مالهم وعليهم ما عليكم ، وان لم يفعلوا فقاتلوهم ، فقد أباحت لكم السنة قتالهم» .

وأمر على الجيش عبد المؤمن من يومئذ استحق اسم امرة المؤمنين .

وأما غزوات الموحدين قبل خلافة عبد المؤمن فقد كانت تسع غزوات ، حيث أثبت البيدق مؤرج المهدي بن تومرت هذه الغزوات ، وكان لها دورها التاريخي والتأسيسي في حركة الموحدين ، يقول البيدق : في الغزوة الأولى : أعلم أن أول غزوة غزاها المعصوم . غزاة يقال لها « تاودزت » وكان جمع المعصوم مع الحشم ، وكان قائدهم (أي قائد المرابطين) يدعى « بيتان بن عمر » فلما تصنفت الصنوف نظر الناس للمعصوم فقال : لا تفزعوا فانهم هاربون . وكذلك كان فعلهم انما كان هروبا .

ويعلق د . عبد الله علام على البيدق فيقول : نرى أن البيدق يثبت للمهدي معجزة الأخبار نتيجة المعركة قبل وقوعها ،

ويصور المرابطين كفارا . والموحدين مؤمنين ، وقد منحهم الله نصرا مبينا لأنهم جنود الله أبطالا ، ولكن السر في هذه المعركة ، أن السلطان على بن يوسف عين « بيتان بن عمر » على هذه الحملة الأولى ليلتقي بابن تومرت ويتفق معه على الصلح وجذبه الى السلطان حقنا لدماء المسلمين ، اذ كان بيتان هذا صديقا حميما لابن تومرت ، وآواه وحماه وهيأه للهروب الى قومه دون أن يعرضه وهو بمراكش ، فقد حمل بيتان ابن عمر المهدي الى بيته لأدنى أذى ، والسلطان الصالح التقي يعرف هذه القصة ، ولذلك عين هذا القائد لملاقاة صديقه القديم لعله يهديه الى الصراط المستقيم ولكن ابن تومرت لم يكترث بصديقه ، واستغل نكوص جيش القائد « بيتان » وسماه نصرا مبينا للموحدين . وندرك من هذا التصرف قدر دهاء ابن تومرت الذي أنكر صديقه حتى لا يرتمي في أحضان علماء المرابطين بزعامة غريمه « مالك بن وهيب » . كما ندرك طيبة وتسامح السلطان التقى على بن يوسف بن تاشفين الذي كان ضحية عناد علمائه ومكر ابن تومرت[1] .

وكان في بداية الأمر يشارك الزعيم الروحي في الحرب ضد المرابطين ، كما يستشف من هذا النص الذي يتحدث عن العزمة الخامسة : فلما التقى الجمعان . قاتلناهم قتالا شديدا ، وقاتلونا كذلك حتى سقط فيها المعصوم وورد عليه كثير من الناس حتى قام ، وانهزم المجسمون بفضل الله ورحمته . ومعنى ذلك أن المهدي ابن تومرت كان يشارك في الحرب بنفسه عكس ما كان

يراه الأستاذ ابراهيم حركات في تاريخه[1] .

وقد يكون الأمر صحيحا بعد الغزوة السابعة التي نضرر فيها المهدي وهي غزوة هسكورة التي شج فيها وجهه . وبعد هذه المعركة ، لا نرى البيذق يشير الى اشتراك ابن تومرت في القتال بنفسه . فلعل أتباعه أقنعوه بالابتعاد عن الحرب ، حتى تظل الدعوة الموحدية قوية بوجوده ، وحتى ينفرد المتفكير في الأسلوب الحربي الذي ينبغي أن يتبعه الموحدون ، ثم يكلف من يعين من أتباعه بتنفيذها . وهذا المفهوم للسياسة الحربية كان أكثر ملاءمة للموحدين . وأكبر فعالية لنجاح مهمتهم في مشاركة المهدي المباشر في المعارك .

ولذلك كان المهدي دائما يكلف عبد المؤمن والبشير وأبا حفص بمساعدته في هذه المهمة ، وكان يكرر على الموحدين : «لا تهبطوا للوطأ واتركوهم يصعدوا اليكم»[1] أي لا تنزلوا من الجبل الى السهول ودعوا العدو يصعد اليكم ففي هذا الأمر حكمة مهمة من حكم الحرب ، وخدعة من خدعه .

ومماسبق يتضح أن معركة «البحيرة» كانت بقيادة محمد البشير . الذي سيلقي حتفه فيها ، كما سنوضح فيما يأتي :

معركة البحيرة ووفاة المهدي بن تومرت :

منذ سنة 524 هـ أخذت هذه الاشتباكات تأخذ طابع صدام المسلح مع جيش المرابطين ، وفي هذا التاريخ جهز

المهدي بن تومرت جيشا جرارا من الموحدين ، ووجهه الى مراكش عاصمة المرابطين ، وقال لهم : اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين ، فادعوهم الى إماتة المنكر واحياء المعروف .. الخ .

خرج جيش الموحدين الى مدينة مراكش في أربعين ألفا ، فوصلوا الى موضع اسمه «البحيرة» يقع في ظاهر مراكش ، بقيادة محمد البشير . فخرجت اليهم جيوش المرابطين بقيادة الزبير بن علي بن يوسف من باب ايلان ، ونزل المرابطون قريبا من معسكر الموحدين ، فدعاهم عبد المؤمن الى دعوة ابن تومرت ، وحاول قائد المرابطين أن يحذر عبد المؤمن من عاقبة الخروج من الجماعة والفتنة ، فزاده ذلك طمعا في المرابطين ، واشتبك الجيشان في معركة عنيفة انتهت بهزيمة الموحدين ، ومهما يكن من شيء ، فان معركة «البحيرة» تعتبر بحق أعنف المعارك الصراع بين المرابطين والموحدين في حياة المهدي . كما تعتبر أيضا أعظم موقعة خسر فيها الموحدون ، فقتل عدد كبير من بينهم أبو عبد الله الونشريسي وسليمان آحضري ، وأبو عمران موسى الجدميوي وقائد جيشهم «محمد البشير» الذي قام قبل دخلة المعركة ، بعملية غير انسانية ، وهي عملية التمييز بين جنوده فقتل كل من كان يشك في اخلاصه ، قبل المعركة .

ونجا عبد المؤمن بن علي في نفر من أصحابه وقد أصيب بجرح عميق في فخذه الأيمن . فلما وصل الخبر الى المهدي

قال : أليس قد نجا عبد المؤمن ؟ قالوا نعم . قال : لم يفقد أحد »[4] .

ورغم قوة وعزم وصبر ابن تومرت على الصعوبات ، وقدرته الفائقة على استخدام الأحداث المنشطة من أجل إنجاح أهدافه ومراميه . فانه قد تأثر تأثرا عميقا بهزيمة الموحدين بالبحيرة وبموت البشير ، فقد أحس ابن تومرت بالمرض بعد أربعة شهور من واقعة المرابطين بالموحدين سنة 524 هـ فلزم داره بتينملل ولم يخرج منها الا الى قبره في المسجد الملاصق لداره ، حيث دفن به سرا في 29 رمضان سنة 524 هـ . وكتم أصحابه نبأ وفاته ثلاث سنوات ، قام الموحدون خلالها بشن الغارات على المرابطين ، ثم أعلنت وفاة المهدي رسميا سنة 527 هـ . وقام بأمر الموحدين ، عبد المؤمن بن علي في هذه التاريخ بفضل ثلاث أشياخ .

من الموحدين ، هم : عمر أصناج وعبد الرحمن بن زجو ، وأبو ابراهيم اسماعيل الهزرجي من أهل الجماعة[5] ليقود المرحلة الثانية في الصراع بين المرابطين وبين الموحدين التي انتهت بسقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين . بعد سنوات من الصراع الدامي بين القوتين .

1 — عبد الله علام . الدولة الموحدية بالمغرب ص 77 .

2 — ابراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ المجلد الأول دار السلم بالدار البيضاء . ص 262 .

3 — ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، طبعة فاس . ص 125 .

4 — عبد الواحد المراكشي . المعجب في تلخيص أخبار المغرب . ص 913 .

5 — البيدق . أخبار المهدي بن تومرت . ص 133 .

الفصل الثالث

النّشاط السياسي والحربي للخليفة عبد المؤمن بن علي

1 ـــ خلافته بعد ابن تومرت :

بايع القوم عبد المؤمن ، ودعا لهم ابن تومرت ، ومسح وجوههم وصدورهم واحدا واحدا . ونعتقد أن هذا الاستخلاف كان على قيادة الجيش فقط ـــ لأن ظروف الموحدين الحربية أنذاك ـــ كانت في حاجة الى قائد محنك ـــ خصوصا عقب وفاة قائد الجيش الموحدي «محمد البشير» في معركة «البحيرة» التي زعزعت أركان الدعوة الموحدية . فما كان من ابن تومرت ـــ وقد أعجزه المرض ، الا أن يجدد ثقة شعبه بالدعوة ويقوي عزائمه فقال مخاطبا اياهم : «احذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الأراء ..» ولذلك كان اختيار أمر

تومرت عبد المؤمن أميرا للجيش من أهم مبايعة الموحدين اياه للخلافة بعد وفاته .

وحسب قول المراكشي ، فان عبد المؤمن بويع بيعة واحدة بالخلافة كانت عقب وفاة المهدي بن تومرت مباشرة أي (سنة 524 هـ) . الا أن أغلب المؤرخين يذكرون لخلافة عبد المؤمن بيعتين (الخاصة والعامة) ومن بين هؤلاء المؤرخين ابن صاحب الصلاة في كتابة «المن بالامامة» اذ يقول : «لما توفي (المهدي) رضي الله تعالى عنه كتم أصحابه وفاته . وما كان يعلمها الا أهل الدار ، وهم خدمه وأخته ثم أكابر أصحابه الذين بايعوا سيدنا ومولانا الخليفة الأول أمير المؤمنين في الحين بيعة السر رضي الله تعالى عنه»[1] .

ولما كانت وفاة المهدي سنة 524 هـ فان مدة كتمان وفاته وبيعة السر ظلت ثلاث سنوات ، ونستخلص من كلام ابن صاحب الصلاة وابن خلدون أن عبد المؤمن بويع البيعة العامة في سنة 527 هـ .

هكذا بايع عبد المؤمن في البيعة السرية (الخاصة) أهل العشرة ، المسمون صحابة المهدي فقط . أما البيعة الثانية (العامة) بايعه فيها أهل العشرة ثم الخمسون ثم عامة الموحدين .

وبذلك كانت الخلافة من نصيب عبد المؤمن بن علي أحد تلامذته النجباء ، وقد لقي نبأ خلافته ارتياحا في بعض

الجماعات ، مع أنه لم يكن ينتمي الى أي من قبائل الموحدين . لعل عدم انتماء عبد المؤمن الى تلك القبائل هو الذي رشحه للفوز بهذا اللقب الخلافي .

ويزعم بعض المؤرخين أن عبد المؤمن لجأ الى الحيلة في كسب ولاء عامة الموحدين بعد أن استعمل الدهاء في كسب خاصتهم ليعمل الكل على بيعته . فربى أثناء قيامه بالحكم شبلا روضه حتى صار أنيسا كالكلب ودرب عصفورا على أن ينطق بالعربية بهذه الكلمات : النصر والتمكين للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين سند المملكة وناصرها » .

ولما تم تدريب الطائر على النطق بهذه الكلمات نطقا صحيحا ، وروض الأسد على أن يقوم بجميع ضروب الخضوع والطاعة لسيده ، ابتنى عبد المؤمن في ظاهر تينملل قاعة كبيرة ، واتخذ جميع الاجراءات التي تمكنه من استعمال الأسد والطير ، ثم دعا الموحدين وأكابرهم الى الاجتماع وجلس في الصدر في مكان عال ، وقام خطيبا فيهم يخبرهم بوفاة المهدي ويحثهم على الألفة واجماع الكلمة وحذرهم عاقبة الخلاف ، وأن يختاروا من بينهم رجلا واحدا يولونه الزعامة والسلطان المطلق ، وبينما الحضور بين مظاهر الحزن العميق اذ أرسل السائس الأسد وصفر خادم للطير المعلم . واذا بناطق ينطق بلسان فصيح كأنما نزل من السماء : «النصر والتمكين للخليفة عبد المؤمن ، أمير سند المملكة وناصرها» . وفجأة خرج الأسد مزمجرا وهو

منفوش الشعر ، مكشرا عن أنيابه رافعا ذنبه وعيناه ، فذعر الحضور وارتعدت فرائصهم ، وبادر عبد المؤمن الى الأسد فأنس اليه في الحال فدهش الحضور وأخذ يعلق يديه في هدوء ولما رأى الموحدون هذه المعجزة لم يترددوا لحظة في اختيار ذلك الذي دعاه الوحي الى الرياسة لهم خليفة وزعيما وبايعوه في الحال على الطاعة وبقي الأسد منذ ذلك اليوم رفيقا لعبد المؤمن مثل الكلب الوفي .

وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

انس الشبل ابتهاجا بالأسد ورأى شبه ابيه فقصد
ودعا الطائر بالنصر لكم فقضى حقكم حين وفد

وان كنا نشك في صحة هذه الرواية السابقة لبعدها عن المنطق والواقع .

وخلاصة القول أنه بمقتضى البيعة العامة ، أضحى عبد المؤمن خليفة للمهدي وزعيم الموحدين الروحي والسياسي .

جهود عبد المؤمن الدبلوماسية والحربية

أولا : المرحلة الأولى : الاستيلاء على دولة المرابطين :

كانت مهمة عبد المؤمن بعد أن تولى خلافة الموحدين صعبة للغاية فكان عليه أن يقضي على دولة المرابطين ، ويضم بلاد

المغرب الأوسط والأدنى الى المغرب حتى يصبح المغرب كله تحت حكم الموحدين ، ولم يكن هذا الأمر هينا لاسيما وقد ذاق من قبل مرارة الهزيمة حين عزم على مهاجمة مراكش حاضرة المرابطين .
هكذا قضى عبد المؤمن وقتا طويلا في محاربة المرابطين في منطقة السوس بالمغرب الأقصى . ولكن يغلب على تلك الحروب أنها حروب قبلية لا ترقي الى مستوى المعارك المنظمة ، وهي أقرب الى حرب العصابات منها الى الحرب المنظمة ، ويبدو أن الدولة المرابطية آنذاك لم تكن نتظر الى حركة الموحدين نظرة تخوف ولم تدرك أنها خطر يهدد كيانها ولاسيما بعد أن الحقت بهم الهزيمة الساحقة في البحيرة دون أن تبذل في ذلك عناء كثيرا .

وركز عبد المؤمن سلطته على الأطلس الكبير بعد القيام بعدة غزوات ، مثل غزوة حصن «تاسغيموت» الذي يقع على بعد 35 كلم جنوبي شرقي مراكش . ثم الغزوة الثانية ضد قبائل هزرجة وهسكورة اللتان رفضتا قبول دعوة الموحدين وهناك غزوات درعة وتارود انت واكليز .

وبعد ما استولى عبد المؤمن على منطقة جبال الأطلس قام بغزوة عظيمة استمرت سبع سنوات (534 ــ 541 هـ/1139 ــ 1146 م) وفي هذه الحروب أظهر عبد المؤمن مهارته الحربية بعد أن أخذ عبرة من هزيمة الموحدين في معركة «البحيرة» وأدرك أن سر نجاح المرابطين في حروبهم التي يخوضون غمارها في السهول .

لذلك غير أسلوبه الحربي الذي أصبح يعتمد على الجبال الوعرة ، ولأول مرة تبدو هذه الأساليب جديدة غير مألوفة من قبل . ولم يخاطر بالنزول الى السهل . وهذه الطريقة الحربية كانت تناسب حاجات الموحدين وظروفهم العسكرية[2] وفي مقابل هذا التكتيك الحربي عند الموحدين ، نلاحظ أن القيادة العسكرية المرابطية وجنودهم لم يغيروا طريقتهم الحربية ، فنادرا ما تركوا السهل ، وكان من أسباب انهزام المرابطين اقتصار نشاطهم في أغلب الظروف على المطاردة مع بقائهم على مقربة من العدو للاشتباك معه ، ظنا منهم أن عبد المؤمن سيدخل ميدان المعركة مكشوفا فيعرض نفسه للمهاجمة من طرف فرسان المرابطين . علاوة على أن المرابطين لم تكن لديهم الجرأة الكافية لمواجهة الموحدين في معركة فاصلة تستحق قوات عدوهم .

ولم يفكر عبد المؤمن أثناء سيره في الجبل ، في الاستيلاء على ممتلكات المرابطين ، بل كان يسعى جاهدا لكسب الأنصار لعقيدة الموحدين ، فضلا عن تجنيد المحاربين لخدمة قضيته وتحقيق أهدافه .

وباختصار فقد استعمل عبد المؤمن ضد المرابطين « طريقة التدويخ » على تعبير الحروب الحديثة ، وسياسة النفس الطويل .

فتح تلمسان ووهران :

في سنة 535 هـ خرج عبد المؤمن في جيش عرمرم غازيا بلاد المغرب الأوسط ، فأطاعته غمارة بشمالي المغرب ، وفي أثناء

هذه الغزوة توفي أمير المرابطين «علي بن يوسف» سنة 537 هـ . فخلفه ابنه تاشفين ، ووقع خلاف بين لمتونة ومسوفة من قبائل المرابطين ، فانظمت مسوفة الى الموحدين ، ثم حاصر عبد المؤمن مدينة سبتة ، ولكنها امتنعت عليه فاضطر الى مغادرتها ، وواصل زحفه شرقا الى جبال غياثة وبطوية فاقتحمهما . ثم واصل السير الى بلاد ملوية حيث تمكن من الاستيلاء على حصونها ، ومن هناك واصل زحفه شرقا الى بلاد زناتة فأخضعها وأخضع قبائل مديونة .

وبعد انتقال عبد المؤمن الى (تاجرا) مسقط رأسه . دخلت قبائل المغرب الأوسط (الجزائر) ضمن دائرة الدولة الموحدية . مما أعطى أبعادا قوية للموحدين . كما أن وفاة أمير المرابطين السالف الذكر ، في هذه الفترة التي وصلت فيها حركة الموحدين أوج قوتها العسكرية ونشاطها الحربي ، يبشر بنجاحها على حساب الأمير الجديد تاشفين بن علي ، الذي توزعت قواته بين المغرب الأوسط والأندلس .

وغادر جيش الموحدين «تاجرا» نحو مدينة تلمسان ، حيث نزل بالصخرتين وهي تل يشرف على المدينة من ناحية الجنوب ونزل عبد المؤمن تلمسان في سنة 539 هـ فقتل «الابرتير» ونجح في دخول تلمسان .

ولما أحس تاشفين بن علي بالخطر الذي يتهدد تلمسان تراجع على أثر ذلك الى وهران ، فحاصره الموحدون عصمه ،

وأشعلوا النيران على باب الحصن ، فحاول تاشفين الخروج بفرسه من الحصن ، وكان الليل ، فتردى به فرسه من حافة الجبل فسقط ، ومات في 27 رمضان سنة 539 هـ — 23 مارس 1145 م . ودخل الموحدون وهران وقتلوا من كان بها من المرابطين ، وبوفاة تاشفين ينتهي دور المرابطين السياسي والحربي .

فتح فاس :

تطلع عبد المؤمن بعد هذه الانتصارات التي أحرزها الموحدون ، الى فتح مدينة فاس ، فجد السير اليها واستولى على أجر سيف المقرمدة . فلما علم يحيي بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين المعروف بالصحراوي قائد فاس بقدوم عبد المؤمن ، خرج لمقاتلتهم ، فانهزم الصحراوي ، وتراجع الى فاس . وفي اليوم التالي نزل الموحدون بعدوة سبوني (موضع) يقال له « عقبة البقر » وفي هذا المكان قسم عبد المؤمن جيشه الى قسمين : قسم بقيادة أبي بكر بن الجبر مع صنهاجة وهسكورة ، لحصار « فاس » . أما عبد المؤمن فقد ارتقى مع بقية الجيش جبل العرض . وهناك أمر الخليفة جنوده بقطع الأشجار ، فقطعت ، ثم حملت الى الوادي ، فسد بها ثم أمر بتحويل مجرى النهر الى جهة الأسوار ، وأطلق المياه في المجرى الجديد ، فجرفت المياه باب السلسلة وهدمته ، وغمرت أحياء المدينة فأغرقت عددا كبيرا من دورها .

واضطر القائد المرابطي الى بناء السور المهدم ، فأتم بناءه . وفي هذه الأثناء أرسل عبد المؤمن سرية استطلاعية الى

مكناسة . فخرج اليهم قائدها وقتلهم جميعا باستثناء ثمانية فرسان . فلما علم عبد المؤمن بما حل بجيش الفرقة الاستطلاعية غضب غضبا شديدا وزحف الى مكناس بجيش ضخم أثناء الليل تاركا أبا بكر بن الجبر على حصار فاس . فافتتح أرض مكناس ماعدا تاجرارت .

ولما طال الحصار على أهل « فاس » خرج أبو محمد الجياني والي فاس خفية الى أبي بكر بن الجبر ، واتفق معه على أن يفتح له أبواب فاس . وفوجيء الصحراوي في الصباح برؤية الموحدين على السور في 14 ذي القعدة سنة 540 هـ . فر في جماعة من عسكره واحتموا بقلعة آمرجو . الا أن الصحراوي فر الى الأندلس ، فخرج أبو يحيي بن الجبر اليهم وقبض عليهم وأخذهم الى فاس حيث قتلهم .

وهكذا افتتح الموحدون مدينة فاس بعد تسعة أشهر من الحصار . ثم وصل عبد المؤمن الى فاس وأقام بها بعض الوقت . وخلال مدة وجوده بالمدينة الحصينة أمر بسورها فهدم . وقال : اننا لا نحتاج الى سور ، وانما الأسوار سيوفنا وعدلنا فظلت بلا سور حتى عصر الخليفة الرابع « محمد الناصر » الذي أقام لها سورا جديدا في سنة 600 هـ . ويبدو من روايات : البيذق وابن صاحب الصلاة وابن عذارى ، وابن خلدون . أن عبد المؤمن لم يشهد فتح « فاس » اذ كان في هذا الوقت على رأس جيش الموحدين المحاصر لمدينة مكناس . وولى على المدينة « أ[illegible]

عبد الله محمد بن الجدميوي » أو « الكرميوي » يعاونه الجياني في ادارة شؤونها . عاد الى مكناسة بكامل جيشه .

الاستيلاء على مراكش :

توجه عبد المؤمن بجيشه لحصار مكناسة الا أنه لم يمكث « بمكناس » بل عين على حصارها القائد الموحدي أبا زكرياء بن يومور . واتجه الى مدينة « سلا » التي استسلمت دون مقاومة ، ثم استولى على قصبة الرباط (وكان ذلك في 17 من ذي الحجة سنة 540 هـ) . وعين على سلا والرباط الشيخ عبد الواحد الشرقي .

ثم مضى هو بمعظم عسكره لفتح مراكش حاضرة الدولة المرابطية وآخر معاقلهم الحصينة . وقد أمدت عبد المؤمن قبيلة هسكورة وصنهاجة بعسكر ضخم ، هبط بهم عبد المؤمن الى وادي أم الربيع ، واستولى على آزمور ، ثم ضم صنهاجة آزمور الى جيشه فسار بهم الى مراكش .

وضرب عبد المؤمن قبته الحمراء (رمز القيادة) فوق جبل ايجليز المطل على مدينة مراكش وأمر ببناء مسجد وصومعة عالية ليراقب منهما الأعمال الحربية ثم استقر فوق الجبل وهو يدير شؤون الفتح .

وكان يدرك أكثر من غيره حصانة مراكش التي امتنعت على المهدي وامتنعت عليه نفسه حين أراد اقتحامها في بدء خلافته .

ولكن الحال تغير تماما هذه المرة . فالموحدون يريدون مراكش بعد أن مزقوا قوات الدولة المرابطية في المغربين الأقصى والأوسط وخضعت لهم القبائل ووضعوا أيديهم على الحياة الاقتصادية والاجتماعية .

وخرج إليهم جيش المرابطين من مراكش بقيادة اسحاق بن علي بن يوسف وقائدين من قواده وهما محمد بن حواء ، ومحمد بن يانكلا أو « يانجالا » لمقاتلة الموحدين ، وكان ذلك في 5 من شهر محرم من سنة 541 هـ . فهزمهم الموحدون عند أول لقاء . وتراجع المرابطون الى باب الشريعة .

وكان من أسباب نجاح الموحدين في هذه المعركة نظام الكمائن المستورة . حتى اذا ما نشب القتال في اليوم الخامس ، خرجت الكمائن من مخابئها وأعملت السلاح في رقاب المرابطين على حين غفلة فأوقعت بهم الهزيمة . وغنمت نحو ثلاثة آلاف من خيولهم . وفر من نجا منهم . وضيقوا الخناق واستمر الحصار نحو تسعة أشهر ، حتى نفذت الأغذية ونفقت الدواب ومات كثير من الناس . ولما أيقن عبد المؤمن أن روح المقاومة قد ماتت وأن الأعياء بلغ أشده بالسكان المحاصرين . أمر باقتحام المدينة . بالسلالم . وفي 18 شوال تمكن الموحدون من تسلق الأسوار بالسلالم . فاقتحموا المدينة ودخلوها وقتلوا عددا كبيرا من أهلها ، فامتنع الأمير اسحاق في جملة من رجاله بالقصبة المعروفة بقصر الحجر ، واستمر الموحدون يقاتلون حتى الزوال ،

وعجز المحاصرون بقياد أبي الحسن بن وجاج الحصي وقبضوا على الأمراء والقواد وحاول عبد المؤمن أن يمنع ابن وجاج من قتل اسحاق وبعض أبناء الأمراء . من الصبيان فصاح به أبو الحسن بن وجاج «ويوا ويوا للموحدين ، أرتد علينا عبد المؤمن يريد أن يربي علينا فراخ السبوعة» .

فانسحب عبد المؤمن من المجلس غاضبا ، وتبعه الموحدون فيما عدا أبو الحسن والشيخ أبو حفص .

هكذا قضى الموحدون على آخر معاقل المرابطين ، وبسقوط مدينة مراكش سنة 541 هـ زالت الدولة المرابطية من المسرح السياسي ، وانتهت حرب سبع سنوات ، وأصبح عبد المؤمن بن علي سيد المغرب كله .

المرحلة الثانية :

جهود عبد المؤمن الخارجية

أولا ــ بلاد الأندلس :

كان عبد المؤمن قد تلقى عند انصرافه من مدينة «فاس» لمحاصرة «مراكش» بيعة أهل سبتة له . فولى عليهم يوسف بن مخلوف الهنتاتي . الا أن أهل سبتة نقضوا هذه البيعة وقتلوا يوسف بن مخلوف الموحدي . وجاز القاضي عياض والي المدينة السابق ، الى يحيي بن علي بن غانية المسوفي والي

الأندلس ،فلقيه بالجزيرة الخضراء (الأندلس) . وطلب منه ولاية سبتة .

فبعث معه يحيي بن أبي بكر المعروف بالصحراوي ، فقام بأمر سبتة وتحالف مع القبائل الناقمة على الموحدين أمثال « برغواطة » و « دكالة » . فحاربهم عبد المؤمن حتى دخلوا في الطاعة ثم عاد الى مراكش بعد أن عفا عن الصحراوي يصف المراكشي حال الأندلس في عهد الأمير علي بن يوسف في هذا النص بقوله : « فأما أحوال الأندلس ، فانه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف ، اختلت أحوالها اختلالا مفرطا ، أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم وميلهم الى الدعة وايثارهم الراحة ، وطاعتهم النساء فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلوا في أعينهم ، واجترأ عليهم العدو ، واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم ، وكان أيضا من أسباب ما ذكرناه من اختلالها ، قيام ابن تومرت بسوس ، واشتغال على بن يوسف به عن مراعاة أحوال الجزيرة ..

ولما رأى أعيان بلاد تلك الجزيرة ما ذكرناه من ضعف أحوال المرابطين أخرجوا من كان عندهم من الولاة . واستبد كل منهم بضبط بلده وكادت الأندلس تعود الى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بني أمية .

وجه عبد المؤمن نظره الى الأندلس ، فقد انتهز أهلها فرصة ضعف تاشفين ابن علي ، وتوالي الهزائم عليه في المغرب على أيدي

الموحدين وأعلنوا الثورات في كل مكان بالأندلس . وزاد هذه الثورات قوة بعد وفاته في عام 539 هـ وكان علي بن عيسى بن ميمون من بين هؤلاء الثوار فاستقل بقادس سنة 540 هـ . كما قام أحمد بن قس الصوفي الثائر في مرتلة فلما استولى أبو محمد سدراي على مرتلة أجاز ابن قس الى عبد المؤمن بمراكش في سنة 541 هـ .

ورغبة في امتلاك الأندلس سير عبد المؤمن معه جيشا بقيادة براز بن محمد المسوفي في شعبان سنة 541 هـ ، ثم أمره بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد ، وجيش ثالث بقيادة عمر بن صالح الصنهاجي ، فلما عبروا الزقاق ، ونزلوا بالأندلس ، هاجموا أبا القمر بن عزوز المنتزي بشريش ورندة ، فدخل في طاعة الموحدين ، ثم قصدوا لبلة ثم ساروا الى مرتاة فدخلوها ، واقتحموا بعد ذلك شلب وباجة وبطليوس كما انضوت اشبيلية سنة 541 هـ تحت لوائهم بعد أن اقتحموها برا وبحرا ثم دخلوا مالقة في نفس العام . غير أن بعض تلك المدن سرعان ما نكثت طاعة الموحدين ، وهو الأمر الذي اضطر الخليفة عبد المؤمن بن علي الى ارسال جيش كبير اليها بقيادة يوسف بن سليمان ، فنزل يوسف باشبيلية التي اتخذها الموحدون حاضرة لهم في الأندلس ، وتمكن هذا القائد من بسط نفوذ الموحدين على بطليوس وشنتمرية وقادس وشلب ولبلة ، ثم دخلت قرطبة وجيان في طاعة الموحدين سنة 543 هـ . ولم تحل سنة 545 هـ حتى كان رؤساء الأندلس الذين كانوا أعلنوا

ثوراتهم على المرابطين واستقلوا بمدنهم قد بايعوا عبد المؤمن ودخلوا في طاعته .

حاول الموحدون استرجاع المرية في سنة 546 هـ وحاصروها ولكنهم فشلوا في تحريرها من النصارى بسبب حصانة أسوارها ، ورغم ذلك فقد نجحوا في الوصول الى المرسى وحرق السفن والأجفان الراسية به .

وفي سنة 549 هـ تغلب الموحدون على غرناطة بعد أن خرج منها ميمون بن بدر اللمتوني ، وتوطد نفوذهم في جنوب الأندلس .

وأمر عبد المؤمن ولده أبو سعيد عثمان والي الجزيرة ومالقة وغرناطة بمحاصرة المرية برا وبحرا ، وتخليصها من النصارى ، فتقدم أبو سعيد الى المرية للجهاد بصحبة أخيه أبي حفص ، واستعمل الموحدون المنجانيق على القصبة بعد أن احتلوا المدينة حيث ضربوا عليها حصارا شديدا ، فاستصرخ النصارى ملكهم الفرنسو السابع فأقبل الى نصرتهم على رأس جيش من 12 ألف مقاتل وانضم اليه حليفه بن مردنيش في قوة من 6 آلاف مقاتل ، فطلب أبو سعيد المدد من الخليفة في مراكش فأرسل اليه القائد الكاتب أبا جعفر بن عطية ومعه الأمير أبو يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن والي اشبيلية فازدادت قوة الموحدين ، فانسحب ابن مردنيش وولي عسكر الفرنسو الأدبار ، وهكذا خلا الجو للموحدين فشددوا الحصار على القصبة حتى سقطت

في أيديهم في سنة 552 هـ وبذلك استردوا المرية القاعدة البحرية الشهيرة بالأندلس .

وفي سنة 555 هـ . أمر عبد المؤمن بن علي ولده أبا سعيد عثمان ببناء جبل الفتح وتحصينه ، وتم بناؤه على يدي الحاج يعيش المهندس .

وبهذه المناسبة جاز الخليفة عبد المؤمن من طنجة الى الأندلس ، فنزل بجبل الفتح ومكث هناك شهرين أشرف خلالهما على شؤون الأندلس . وقدمت عليه أشياخها وقوادها لتحيته . ثم أمر بغزو غرب الأندلس . ولم يلق الموحدون كبير عناء في السيطرة على غرب الأندلس وجنوبها ووسطها ، ولم يتمكنوا من السيطرة على شرقيها الا في عهد الخليفة أبي يوسف بن عبد المؤمن .

وكان أهم خطر يهدد أهل الأندلس يتمثل في حلفاء النصارى ابن مردنيش وابن همشك .

وسوف تكون جولات الموحدين في الأندلس في عهد خلفاء عبد المؤمن قوية وحسبنا ما وصلت اليه الأندلس في عهد عبد المؤمن بن علي الذي كان النصارى يتجنبون الصدام به ، نظرا لقوته وشدة تطلعه الى تطهير الأندلس من أمراء لهم ميول نحو النصارى ، أنفسهم الذين حاربوا المسلمين .

ثانيا ــ بلاد المغربين الأوسط والأدنى :

1 ــ الدولة الحمادية :

بينما كانت قوات الدولة الموحدية تعمل على بسط نفوذها في الأندلس ، تفتحت أمام عبد المؤمن جبهة جديدة في المغربين الأوسط والأدنى (افريقية) . وهناك اعتبارات أوجبت عليه ضم هذه البلاد ، التي أوشكت حواضرها على السقوط في أيدي النورماند . يضاف الى ذلك ما وصلت اليه بلاد افريقية من اختلاف أمرائها وتطاول العرب من بني هلال وسليم بالعيث والفساد ، زيادة على استيلاء النورمانديين على سواحل افريقية .

وقد استغاث المسلمون بهذه الثغور بالخليفة عبد المؤمن ولم يكن هناك من سبيل الى انقاذ هذه الثغور من يد الصليبيين دون الاستيلاء على مملكة بني حماد لأنها الفاصل بين دولة الموحدين وافريقية التي اشتد عليها خطر النصارى فجهز أسطولا بحريا وخرج به من مدينة سلا في سنة 546 هـ قاصدا مملكة يحيي بن العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي ببجاية ،فدخل مدينة الجزائر على حين غفلة ، فخرج اليه الأمير الحسن بن علي بن يحيي بن تميم وكان قد انتقل اليها بعد سقوط المهدية في أيدي النورمانديين ، فقدمه أهلها على أنفسهم فلما علم بقدوم عبد المؤمن خرج للقائه ، فتلقاه بحفاوة بالغة . وصحبه في غزو افريقية ثم سار نحو بجاية فأخرج يحيي بن العزيز أخاه سبع للقاء جيوش الموحدين فانهزم هزيمة نكراء وذهب

الموحدون مدينة « بجاية » دون مقاومة سنة 547 هـ . ولما رأى يحيي بن العزيز لا طاقة له بمحاربة عبد المؤمن بن علي ، فر في البحر الى صقيلية بقصد الانتقال منها الى بغداد ثم عدل عن ذلك فنزل في (بونه) على أخيه الحارث ثم انتقل منها الى قسنطينة فنزل على أخيه الحسن .

وأما مسير عبد المؤمن فقد كان قلعة بني حماد معقل الصنهاجيين الأعظم . فاقتحمها عنوة وخربها وأضرم النار في مساكنها .

ولما استولى عبد المؤمن على أملاك الحماديين مثل الجزائر وبجاية والقلعة وأعمالها ، عين ابنه « عبد الله » واليا عليها . ورتب من الموحدين من يقوم بالدفاع عنها ثم ارتد راجعا الى مراكش .

وكان الأمير الحمادي يحيي بن العزيز قد نزل عن قسنطينة لعبد المؤمن بن على أن يؤمنه على حياته ، فأمنه واصطحبه معه الى مراكش في سنة 547 هـ . ثم انتقل يحيي الى مدينة « سلا » سنة 558 هـ . وهي سنة وفاته .

2 ــ الدولة الزّيرية :

قامت الدولة الموحدية على فكرة الجهاد في سبيل اعادة مجد الاسلام الأول ، ولم يكن استيلاء عبد المؤمن على مملكة المرابطين بالمغرب والأندلس هو الغاية النهائية التي يصبوا الهيا الموحدون .

بل كانت خطوة أولى في سبيل تكوين خلافة اسلامية قوية نواجه الزحف الصليبي في المشرق والمغرب .

وكان الأمير الزيري الحسن بن علي قد صحب عبد المؤمن كما أسلفنا غزوته الأولى الى افريقية ، كما صحبه في عام 554 هـ في غزوته الثانية .

بينما كان عبد المؤمن في طريقه الى مراكش بلغه وهو في متيجة خبر قيام عرب الأثيج ورياح وزغبة في سطيف بالثورة على ابنه عبد الله ، وعزمهم على اعادة دولة بني حماد . فأرسل اليه مددا ، والتقى عبد الله بن عبد المؤمن بهؤلاء الأعراب في سطيف . ونشبت معركة عنيفة هزم فيها الأعراب وأعلنوا خضوعهم للموحدين ، وقدم اليه وفد من كبرائهم طائعين فأكرمهم ، وأعادهم الى افريقية ، وكان لذلك أكبر الأثر في دخول العرب في طاعته ، فاتخذ منهم جندا ، ثم استنفرهم الى الجهاد بالأندلس فاستجابوا له وأدخلهم بها .

وفي هذه الأثناء كان عبد الله بن عبد المؤمن قد خرج في جيش كبير من المصامدة والعرب ، ونزل على مدينة تونس في سنة 552 هـ . فحاصرها وقطع أشجارها ، وكانت تونس تحت حكم بني خراسان ، خرج أهل تونس لمقاتلة الموحدين ، وانضم اليهم محرز بن زياد أمير بن علي من بطون رياح هو وقومه من العرب وهزموا الموحدين .

وعاد عبد الله بفلول أصحابه الى بجاية ، ومن بجاية كتب الى عبد المؤمن يخبره بذلك .

وفي فاتح شوال سنة 553 هـ/1158 م . غادر عبد المؤمن مدينة «مراكش» . بعد أن استخلف عليها ابنه الأمير «علي» و «أبو حفص عمر بن يحيي الهنتاتي» وخف الى تونس بجيوش جرارة وصلتها في شهر صفر سنة 554 هـ . ففتحها عنوة ، وعرض عبد المؤمن على النصارى واليهود الاسلام أو القتل ثم غادر تونس متجها الى «المهدية» لتطهيرها من النصارى ، فوصلت جيوشه وأساطيله في شهر رجب سنة 554 هـ/1149 م ، ولم تكن المدينة يسيرة المنال ، فقد كانت محصنة تحصينا طبيعيا يحميها البحر من ثلاث جهات ، كما أن أسوارها قوية ومتينة .

وحين شعر النصارى باقتراب الموحدين من المهدية ، أخلوا «زويلة» ــ ضاحية المهدية الشمالية ــ وأمروا سكانها بدخول المهدية ليحتموا بها ، فأسرع عبد المؤمن الى احتلال «زويلة» التي امتلأت بالموحدين ، والعرب والصنهاجيين .

وابتدأ الموحدون ينازلون النصارى بالمهدية ، ويحاولون اقتحامها بدون جدوى ، لشدة مناعتها ، وكان النصارى يخرجون لمقاتلة الموحدين بين وقت وآخر فينالون منهم ويعودون سريعا الى مدينتهم ، فأدرك عبد المؤمن أنه لا سبيل الى اقتحام «المهدية» الا بضرب حصار شديد عليها والصبر والمطاولة وأمر بجمع الأقوات الضرورية لهذا الحصار الطويل .

وكان عبد المؤمن أثناء حصاره هذا قد بعث ابنه عبد الله لمحاصرة قابس ، فاستولى عليها من بني كامل ورياح ، كما استولى على قفصة من بني الورد . والأربس من بني فتاتة العرب ، وفي مدة قصيرة فتح طرابلس وبلاد الجريد كلها .

وكان لأخبار فتوحه ، وطول الحصار على المهدية أثر كبير في زعزعة ايمان النصارى المحاصرين ، على الرغم من أن الملك «وليم» قد أرسل الى المهدية أسطولا بحريا ضخما لانقاذها . الا أنه هزم على يد قائد الأسطول المغربي ، «أبي عبد الله بن ميمون» فقرروا الاتصال بالخليفة عبد المؤمن لطلب الأمان والانسحاب ، فقبل وأمر بتجهيز السفن الموحدية لنقل النصارى الى بلادهم سالمين . وكان قرارا حكيما ، فقد قرر «وليم» ملك صقلية قتل جميع المسلمين ببلاده اذا أقدم عبد المؤمن على قتل نصارى المهدية .

هكذا دخل عبد المؤمن مدينة «المهدية» ظافرا في يوم عاشوراء من محرم سنة 555 هـ/ 1160 م .

وظلّ عبد المؤمن بمدينة المهدية نحو عشرين يوما يرتب أمورها وعين على ولايتها أبو عبد الله بن محمد بن فرج الكومي يعاونه ملكها السابق الحسن بن علي الصنهاجي . وبدون شك فان تحرير المهدية من النصارى ، وتطهير بلاد المغربين الأوسط والأدنى منهم ، على يد «عبد المؤمن بن علي» يعتبر من أهم الأعمال الخالدة التي خلدت «عبد المؤمن» ورشحته لأن يكون [illegible]

موحد بلاد المغرب لأول مرة في تاريخ المغرب منذ افتتحها العرب . واستحق لقب مؤسس دولة الموحدين .

ثم عاد عبد المؤمن بعد ذلك الى مراكش وأقام بها بقية سنة 555 هـ . حتى سنة 556 هـ . وبلغه خبر هجوم ابن همشك وابن مردنيش ومداد الأقرع على اشبيلية مع حشود كبيرة من النصارى ، وأن ابنه يعقوب قد هزموه . وقتل في تلك المعركة كبار قادة الموحدين أمثال محمد بن عمر الصنهاجي ويحيي ابن أبي بكر بن الجبر ، وعمر بن ميمون الهرغي . كما وصلته الأخبار بهزيمة ولده أبي سعيد عثمان في غرناطة . فخرج عبد المؤمن الى سلا ، بعد أن أعد جيشا ضخما للجهاد . وجاز الى جبل الفتح وسارت عسكره الى غرناطة ففر ابن مردنيش الى محلته بحدرة وابن همشك الى شقورة ودخل الموحدون غرناطة ، ثم عاد الخليفة الى سلا ، حيث مرض ، وتوفي في 27 جمادي الثانية سنة 558 هـ ، ودفن في مدينة تينملل بجوار قبر المهدي .

وهكذا استطاع هذا البطل الجزائري بفضل عبقريته السياسية والعسكرية أن يجعل من بلاد المغرب دولة واحدة تحت ظل خلافة واحدة هي خلافة عبد المؤمن بن علي أمير المؤمنين .

1 ـــ ابن صاحب الصلاة ، المن بالأمانة .

2 ـــ روجي لي تورنو . حركة الموحدين في المغرب ، تعريب د/أمين طيبي ـــ ليبيا تونس 1982 م ص 61 .

3 ـــ القلوص : الناقة .

4 ـــ الديور : الغر .

5 ـــ الخطار : المهلك .

الفصل الرابع
الحياة الثقافية

أ ــ اللغة والفقه :

شهد عصر الموحدين حركة لغوية نشيطة ، فابن تومرت كان من المهتمين باللغة العربية . وعليه سار خليفته عبد المؤمن الذي ربى ابنه يوسف تربية دينية ولغوية حتى صار من علماء اللغة ومن المتضلعين في علم النحو .

وليس أدل على عناية الموحدين بعلوم اللغة والنحو ، من أن مشاهير النحاة بالمغرب والأندلس قد ظهروا في عصرهم .

ففي الأندلس ظهر عمر الشلوبين مؤلف كتاب « التوطئة في النحو » ، ومحمد بن مالك صاحب الألفية المشهورة في النحو والصرف وصاحب لأمية الأفعال .

وكان زعيم نحاة المغرب في هذه الفترة أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي المراكشي مؤلف الجزولية . ومن اللغويين المغاربة

محمد بن أحمد بن هشام اللخمي السبتي المتوفي سنة 570 هـ صاحب كتاب « الفصول والجمل في اللغة » .

ومن اشتهر في علم الصرف ، أبو ذر مصعب بن مسعود الخشني ، وكذلك الحسن بن أحمد بن يحيي بن عبد الله الأنصاري الذي برع في النحو والعروض وتوفي بمالقة سنة 585 هـ .

ومن علماء الأندلس محمد بن جعفر بن أحمد بن خلف الذي درس على أقطاب عصره فبرز في علم اللغة والبلاغة .

ب ــ الأدب :

أزدهرت الآداب في عصر الموحدين ، فخليفتهم كان في مقدمة هؤلاء الأدباء ، وبالتالي طبع الدعوة والدولة بطابع العلم والأدب من أول يوم قامت فيه . فقامت على التدريس والخطابة لشرح الدعوة ونشرها بين القبائل . فالمهدي مثلا جند طائفة مختارة من تلاميذه لبث ونشر مبادئه ، كان من بينهم عبد المؤمن بن علي ومحمد البشير ، وأبو حفص عمر الهنتاتي ، فكان هؤلاء يخطبون باللغة العربية .

ـ وكان عبد المؤمن مؤسس الدولة شاعرا وأديبا وناقدا . وقلده أبناؤه وشعبه ، فانتشر العلم والأدب ، وتبارى العلماء في ميادين الشعر والبلاغة ونالوا كل عناية وتشجيع من طرف الخلفاء ، ونافس أدباء المغرب زملاءهم أدباء الأندلس لأول مرة في التاريخ .

ج ـ النثر :

كانت الخطابة هي أول أداة استعملها الموحدون ـ كما سبق القول ـ في نشر الدعوة الموحدية . فمن خطب ابن تومرت تلك التي ألقاها في الموحدين فقاموا بعد سماعها بمبايعته ، وكان على رأس المبايعين « عبد المؤمن بن علي » ومما قاله ابن تومرت في احدى خطبه منددا بعلماء المرابطين الذين عارضوا دعوته : « واعلموا ـ وفقكم الله ـ أن المجسمين والماكرين ، وكل من نسب منهم الى العلم أشد في الصد عن سبيل الله من ابليس اللعين ، فلا تلتفتوا الى مايقولون فانه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسوله » .

والظاهر أن الكتابة النثرية كانت في عصرها الذهبي في عهد عبد المؤمن بن علي . فقد جمع المستشرق الفرنسي « ليفي بروفنصال » رسائل الموحدين التي بلغت سبعا وثلاثين رسالة من بينها ثلاث وعشرين كتبت في حياة عبد المؤمن ومن أشهر كتابه نذكر : أبو جعفر بن عطية ، وأخوه عقيل بن عطية ، وأبو الحسن بن عياش وأبو الحكم المرضي ، وأبو القاسم القالمي .

ومن رسالة أبي جعفر بن عطية على لسان الخليفة عبد المؤمن الى الموحدين بالأندلس نقتبس منها هذه الفقرة : « .. وقد اتصل بنا ـ وفقكم الله تعالى ـ أن من لايتقي الله ويخشاه ، ولا يراقبه في كبيرة يغشاها وتغشاه ، ولا يؤمن بيوم الحساب ممن أذاعه من المنكر وأفشاه ، ويتسلطون بأهوائهم على الأموال

والأبشار .. » وهذه الرسالة الطويلة تشتمل على كثير من النقد الموجه للولاة والقائمين بشؤون الحكم بالأندلس ، وبصفة خاصة الى العلماء الذين هم الغيرة على الحق .

ومن الكتابات التي ظهرت في هذا العصر ، الرسائل الاخوانية ، ومن ذلك رسالة عيسى بن عمران التسولي ، التي كتبها الى ولده اذ يقول : «الى ولدي .. هداه الله وصانه ، وجمله بالعلم والتقوى وزانه ، كتبت اليكم عن اشتياق كثير ، وبمشيئة الله تعالى تتيسر الأمور ، ويتكاثف السرور واذا ما وجدتكم على ما أحبه من أدوات الحفظ والأداء ، والتزام آداب العقلاء جاريتكم بما يرضيكم وبما يزيد على أقصى تمنيكم .. الخ .. » .

وظهرت أيضا رسائل التوقيعات ، ومنها توقيع عبد المؤمن على قصيدة الكاتب أبي جعفر بن عطية الذي أرسل وهو في السجن قصيدة يستعطف بها الخليفة لعله يحظي بعفوه ، ومطلعها :

عطفا علينا أمير المؤمنين فقد
بان العزاء لفرط البث والحزن

فلم يستجيب له عبد المؤمن ، ووقع على القصيدة بالآية الكريمة : «الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين» .

كما ظهر أيضا من فنون النثر «المناظرات «وكان أول مناظر في الموحدين زعيمهم المهدي بن تومرت ، الذي ناظر علماء

المرابطين وتغلب عليهم في مجلس الأمير علي بن يوسف . ثم تطور هذا الفن في عهد عبد المؤمن الذي كان عصر جدال طويل بين الموحدين وبين المالكيين . وابتدع أحد العلماء بالأندلس وهو أبو عبد الرحمن بن طاهر نوعا جديدا من المناظرة الخيالية . وهي مجادلة بني النفس المطمئنة وبين النفس النزوعية ، ويقيم ابن طاهر مناظرة بين النفسين تنتهي بانتصار فكرة المهدوية .

وأخيرا سادت فنون النثر التأليفي ، فظهرت مؤلفات عامة في التاريخ والفلسفة والعلوم الدينية والأدبية .

د ـــ الشعر :

تقدم بعض النماذج التي تقدم لنا صورة تقريبية عن حال الشعر في هذه الفترة في تاريخ الدولة الموحدية .

فمن شعر ابن تومرت مناجيا نفسه قوله :

اخذت بأعضادهم اذا نأوا   وتسمع وعظا ولا تسمع
فكم أنت تنهي ولا تنتهي   وخلفك القوم اذ ودعوا

ومن شعر الخليفة عبد المؤمن قوله :

وحكم السيف لا تعبأ بعاقبة
وخلها سيرة تبقى على الحقب
فما تنال بغير السيف منزلة
ولا ترد صدور الخيل بالكتب

وهذان البيتان يذكران بقول أبي تمام من مطلع قصيدة مدح بها المعتصم العباسي عندما فتح مدينة العمورية :

السيف اصدق أنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف
في متونهن جلاء الشك والريب

وذكر ابن صاحب الصلاة قصيدة لعبد المؤمن ذيل بها رسالته الى ولده يوسف مبشرا اياه بفتح المهدية وتحريرها من النصارى ، ومما فيها :

ولما قضينـــا بالمشارق أمرنـــا
وتم مراد الله في كل مطلب
وطهر هذا الصقع من كل كافر
وعـاد بها الاسلام بعـد تغيب
وكسرت الصلبان في كل بيعـة
ونادى منادي الحق في كل مرقب
اشرنـا بأعنـاق المطـى اليكــم
فطـار بها شأو السرور بمغـرب
فأبشر أبـا حفص بنصر مؤزر
كفيل بما تبغيه في كل مذهب

الى أن يقول :

فطوبي لأهل الغرب ماذا يرونه
من النصر والفتح المبين المقرب

وحمل لواء الشعر في عهد عبد المؤمن ، شاعران مغربيان شهيران هما : أبو عبد الله بن حبوس ، وأبو العباس الجراوي . فالشاعر أبو حبوس هو أول شاعر لزم عبد المؤمن ونال حظوته ورضاه . حتى أطلق عليه لقب شاعر الخلافة المهدوية . وأمر عبد المؤمن بأن يتصدر ابن حبوس طائفة الشعراء الذين اجتمعوا من أنحاء الأندلس والمغرب بجبل طارق لتهنئة عبد المؤمن بطل الاسلام ومنقذ المهدية من النصارى . ومما قاله ابن حبوس في مدح عبد المؤمن ، وهو بمدينة الفتح :

الا أيها البحر جاورك البحر
وخيم في أرجائك النفع والنصر
وحاش على امواجك الحلم والحجا
وفاض على أعطافك النهي والأمر
وسال عليك البرخيلا كماتها
اذا حاولت غزوا فقد وجب النصر

وقال ابن حبوس في الحث على الأسفار :

رد الطرف حتى توافي النميرا
فرب عسيرا أتاح اليسر

وأرسل قلـــــــوصك[1] طورا شمالا
وطـورا جنوبـا وطـورا دبـورا

أما الجراوي . فانه يعتبر فخر الدولة الموحدية ، وأكبر شعرائها واعتبره بعض المحدثين أعظم شعراء المغرب على الاطلاق ، وعمر طويلا فشهد عصر عبد المؤمن وابنه يوسف ويعقوب المنصور ومحمد الناصر ، ولذلك لقب بشاعر الخلافة الموحدية ، وأشاد به عبد المؤمن فقال له : يا أبا العباس أنا نباهي بك شعراء الأندلس . ومن شعر الجراوي في مدح عبد المؤمن هذه الأبيات :

اعليت ديـن الواحـد القهـار
بالمشرفيـة والقنـا الخطـار
ورای به الاسلام قرة عينـه
وغـدت بك الغـراء دار قرار
وملكت من طرف الهداية لاحقا
طوبي لمن يمشي على الآثار
وجرت معالمكم الى الأمد الذي
بعدت مسافـة على الأسفـار

الى أن يقول :

اخليفـة المهـدي دمت مؤيـدا
باللـه منتقمـا من الكفـار

ترمي . شياطين الأعادي في الوغى
برجوم خيل من سماء غبار
روعت كل مروع وحفظت
تل مضيع وحميت كل ذمار

وقد استمرت هذه النهضة الأدبية بعد الخليفة عبد المؤمن بن علي . وقد تناول الشعراء المغاربة كثيرا من الأغراض الشعرية كالمدح والشعر الديني المهدوي ، ووصف المعارك ، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم . أما الشعر الغزلي فقد نظموا فيه في شيء من التحفظ . لأن عبد المؤمن كان ينفر من الغزل المكشوف .

ولا يتسع المجال هنا للحديث عن أدب الجزائر وتونس ثم طرابلس ، والأندلس . على اعتبار أن هذه الأقاليم كانت تابعة لدولة عبد المؤمن الكبيرة .

ـ الشعر النسائي :

ظهر مبكرا في الأندلس ، في عهد الأمويين ، ونشير هـ بايجاز الى بعض ما ظهر في عهد عبد المؤمن بن علي :

قالت الشاعرة حفصة بنت الحاج الركونية :

ثنائي على تلك الثنايا لأنني
أقول على علم وأنطق عن خبر

وانصفها لا أكذب الله أنني
رشفت بها ريقا ألذ من الخمر

ومن شعر حفصة تهنيء به أبا سعيد بن عبد المؤمن أمير :

يا ذا العلا وابن الخليفة
الامام المرتضي
يهنيك عيد قد جرى
فيه بما تهوى القضا

ومن الشواعر الأندلسيات «أسماء العامرية» الأشبيلية التي كتبت الى عبد المؤمن في رسالة قائلة :

عرفنا النصر والفتح المبينا
لسيدنا أمير المؤمنينا
اذا كان الحديث عن المعالي
ورأيت حديثكم فيها شجونا

ومن شعر الزهد نذكر قول الفقيه المتكلم أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن بن صقر :

الهي لك الملك العظيم حقيقة
وما للورى مما منعت نقير
تجافي بنو الدنيا مكاني فسرني
وما قدر مخلوق جداه حقير

وقالوا فقير ، وهو عندي جلالة
نعم صدقوا اني الـيك فقير

ومن الأشعار الصوفية هذه الأبيات التي قالها أبو سفيان المخرومي :

كل عطــاء فالى علــة
لاشك يقضي ولوجـه السقـم
الا الـذي منك بلا علـة
ياخالـق العـرش ومجرى القلـم
كل الورى لابس ثوب الدجى
لولا سنـي منك يجلي الظلـم

وقد ظهر في عصر الموحدين شيخ المتصوفين محي الدين بن عربي الطائي الحاتمي . ونكتفي بهذا القدر الذي يعطي ولو صورة تقريبية عن النهضة الأدبية واللغوية في عصر الخليفة عبد المؤمن ، التي بلغت قدرا كبيرا من التطور والازدهار اذا ما قيست بعصر المرابطين .

ــ العلوم العقلية

ا ــ التاريخ :

ازدهرت حركة التأليف التاريخي في عصر الموحدين ، حيث ظهر كثير من المؤرخين الذين ألفوا في علم التاريخ أمثال : أبو بكر بن علي الصنهاجي المعروف بالبيدق ، الذي وضع كتابا تاريخيا عن حركة الموحدين سماه : «أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين» . وعبد المالك بن محمد بن صاحب الصلاة ألف كتابا بعنوان «المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين» . ثم علي بن محمد بن عبد الملك الشهير بابن القطان واضع كتاب «نظم الجمان» . وأرخ فيه الأخبار المهدي وعبد المؤمن ، وبعض خلفائه .

كما ظهر من المؤرخين عبد الواحد المراكشي صاحب كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» ، الى جانب هؤلاء المؤرخين ظهرت طائفة من مؤرخي التراجم منهم العلامة مؤرخ

أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال صاحب كتاب «الصلة».

ومن مؤرخي الأنساب كتاب «اقتباس الأنوار، والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثر» لأبي محمد بن علي بن عبد الله اللخمي المعروف بالرشاطي المتوفي سنة 542 هـ.

ب ـ الجغرافيا:

اشتهر المغاربة بحبهم للرحلة والاطلاع على أحوال الأمم، لذلك لا نعجب اذا كثر هؤلاء الجغرافيون والرحالة في هذه الفترة، من الرحالة ابن جبير صاحب كتاب «رحلة ابن جبير». وظهر في عهد عبد المؤمن أكبر جغرافي في العصور الوسطى هو الشريف «الادريسي السبتي» الذي تعلم بسبتة، ثم درس بجامعة قرطبة فأتيحت له فرصة زيارة مدن الأندلس، ثم زار أوربا وعاد الى المغرب ليستأنف الرحلة فيزور مدن المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر، ثم الشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان، وكان في هذه الرحلة الطويلة الشاقة يدون المعلومات الجغرافية، والاجتماعية والثقافية والاقتصادية لتلك البلدان. ولما ذاعت شهرة الادريسي، أرسل في طلبه الملك النورماندي «روجار» الثاني ملك صقلية. فلبي الادريسي هذه الدعوة. ولما لمس الملك غزارة معلوماته كلفه بوضع مصور جغرافي «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق». وبين في كتابه وصف البلاد والممالك والمسالك التي نربط بين أجزاء الأرض، ثم ذكر المسافات بالميل والفرسخ

ودرجات العرض ، كما وصف الجبال والأنهار والبحار والأجناس ، والحيوانات والنباتات والمعادن ، الى جانب الصناعات والمتاجر والديانات والمذاهب واللغات والأزياء والعادات والتقاليد .

ومن الكتب الجغرافية التي ظهرت في عهد عبد المؤمن أيضا : كتاب «الاستبصار في عجائب الأمصار» لمؤلف مجهول .

دراسة الفلك والنجوم

كان علم التنجيم في الدولة المرابطية يلعب دورا هاما في حياتها العلمية . فقد كان رئيس مجلس علماء المرابطين « مالك بن وهيب » حزاء ينظر في النجوم . وحينما ظهر ابن تومرت ، فشرح للأمير بأن الكهان يتحدثون بظهور ملك بالمغرب ، فلعله هو الملك الذي عناه الكهان .

والمهدي ابن تومرت نفسه ، يعتبر من أئمة التنجيم في عصره ، فقد اختار تلميذه « عبد المؤمن بن علي » واصطفاه من بين تلاميذه ليكون خليفته طبقا لنتائج علم التنجيم .

يقول المراكشي في هذا : « فنزل ابن تومرت ـــ وهو آت من المشرق ـــ بضيعة يقال لها ملالة (بالقرب من بجاية) وبها لقيه عبد المؤمن بن علي وهو اذاك متوجه الى المشرق في طلب العلم ، فلما رآه محمد بن تومرت ، عرفه بالعلامات التي كانت عنده ، وكان ابن تومرت هذا أوحد عصره في علم خط الرمل مع أنه وقع

بالمشرق على ملاحم من عمل المنجمين وجفور من بعض خزائن حلفاء بني العباس وأصله الى ذلك كله فرط اعتنائه بهذا الشأن » .

ومن علماء الفلك المشهورين في عصر الموحدين ، البتراجي المراكشي الذي وضع رسالة عن الأجرام السماوية ، ترجمها الأوربيون وطبعوها وانتفعوا بها في بدء عصر النهضة الأوربية الحديثة ، ثم عبد الله بن محمد بن عبد الملك المالكي الفاسي وغيرهم كثير .

م ــ الفلسفة :

ولم تنل الفلسفة في عهد المرابطين عناية تذكر بحجة أنها تجر الى الالحاد وتفسد العقيدة ، ويدعمون رأيهم بالسلف الصالح من الأئمة أمثال مالك بن أنس الذي كان يفر من تأويل الآيات المتشابهات ، وكذلك كل من الامامين الشافعي وابن حنبل رضي الله عنهما ، اللذان قبحا الاشتغال بعلم الكلام ، الذي هو ركن أساسي من أركان الفلسفة الاسلامية .

وبظهور الامام المهدي ابن تومرت ودعوته التي كانت تقوم على مبادىء شيعية وكتب لها الانتصار على المرابطين ــ منذ ذلك الحين سار المغرب على قدم المساواة مع المشرق في دراسة الفلسفة الكلامية . والملاحظ أن الفلسفة اليونانية لم يقدر لها الظهور بالمغرب في عهد ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن بن

علي . والجدير بالذكر في هذا المجال أن يوسف بن عبد المؤمن الذي عين واليا على اشبيلية سنة 549 هـ . فقد اشتغل بدراسة العلوم المختلفة على يد علماء الأندلس . وكانت في مقدمة هذه العلوم الفلسفة اليونانية وخصوصا فلسفة أرسطو . وذكر المراكشي أن الأمير يوسف بن عبد المؤمن بعد أن درس علوم اللغة والنحو والحديث ، تاقت نفسه الى تعلم الفلسفة وأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له ما يقرب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي وراح يبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر الى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب .

وكان من أشهر الفلاسفة الذين اصطفاهم وأخذ يطارحهم مسائل الفلسفة الفيلسوف «أبو بكر بن طفيل» صاحب رسالة «حي بن يقظان» ثم الفيلسوف العربي ابن رشد ، وظهر الفيلسوف الصوفي محي الدين بن عربي متأثرا بمباديء ابن تومرت . ونكتفي بذكر هؤلاء الفلاسفة دون التعرض لانتاجهم الفكري ، لأنهم ظهروا في عهد الخليفة الثاني (يوسف بن عبد المؤمن) وهو خارج عن بحثنا .

و ــ الهندسة والحساب والجبر :

لقيت العلوم الرياضية مزيدا من الاهتمام والعناية في عهد الخليفة عبد المؤمن فالهندسة مثلا كانت هي الأساس العلمي الذي قامت عليه المنشآت المعمارية ، الدينية منها والمدنية والحربية .

وقد دعت الضرورة الى هذا الفن خصوصا عندما أصدر عبد المؤمن أوامره بمسح جميع الأراضي من برقة شرقا الى المغرب الأقصى غربا لتسهيل فرض الضرائب على هذه الأقاليم .

وكان من أشهر المهندسين المعماريين في عهد عبد المؤمن ، المهندس الحاج يعيش المالقي ، والمهندس ابن جاسة الذي يعتبر واحدا من بين المهندسين الذين أشرفوا على بناء مدينة جبل طارق ، وأما عن الحساب فقد كان مادة دراسية . لذلك احتاجت الدولة الى هؤلاء المحاسبين خصوصا في المحاكم والتركات وغيرها .

ومن أساتذة الحساب ، ابن فرصون القيسي القرطبي (ت 601 هـ) وله كتاب «اللباب في مسائل الحساب» ، ومنهم عبد الله بن محمد بن سهل الفرناطي ، وعبد المنعم بن محمد المراكشي .

ومن أساتذة الجبر أبو عبد الله محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين الفاسي . فكان اماما في الجبر والمقابلة .

الفصل الخامس

نظام الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي

يعتبر عمل عبد المؤمن بن علي ، تكملة للعمل الذي وضعه الامام المهدي ابن تومرت في نشر مبادئه ، وتأسيس دولة قامت على أساسه . وبلاشك فانه نجح نجاحا كبيرا في هذا المضمار ، عندما امتد بسلطان حركة الموحدين الى هذه المناطق التي ذكرناها عند حديثنا عن حروب عبد المؤمن بعدما كان هذا السلطان منحصرا في الأطلس الأعلى فقط عند وفاة المهدي ومع أنه لم يتم له تحقيق مانادى به ابن تومرت بنشر عقيدة التوحيد في بلاد الاسلام جميعها ومقاتلة الرجال في فلسطين ، الا أن عبد المؤمن أوصل الدولة الموحدية الى حدود لم نتجاوزها الا قليلا طيلة مدة حكمها وخلال أيام ازدهارها بعد وفاته .

كان عبد المؤمن وفيا لمبادي أستاذه، واستمر يحفظها ويأمر الناس بذلك، وليس أدل على هذا الوفاء من كتاب «أعز ما

يطلب» وهو عبارة عن دروس المهدي التي جمعها عبد المؤمن بنفسه . الى جانب استمراره في محاربة المنكر والأمر بالمعروف ، ومحاربة المذهب المالكي الذي تمكن من نفوس المغاربة وتعلقوا به بصفة دائمة خصوصا على عهد المرابطين «فأمر بتحقيق كتب الفروع ورد الناس الى قراءة مكتب الحديث واستنباط الأحكام منها ، وكتب بذلك الى جميع طلبة العلم في بلاد الأندلس والعودة» .

ويتعين علينا قبل أن نناقش تنظيمات الخليفة عبد المؤمن التي أحدثها في الدولة ، من أن نشير الى النظام الحكومي الذي وضع أساسه المهدي ابن تومرت لجماعة الموحدين عقب مبايعته بالمهدوية سنة 515 هـ .

راعى ابن تومرت في هذا النظام أن يمثل القبائل التي استجابت لدعوته المهدوية والتوحيدية وأظهرت استعدادها في سبيل نصرة هذه الدعوة كلما استدعى الأمر ذلك .

يتألف ذلك النظام ــ كما ذكره ابن القطان ــ من أربعة عشر طبقة مرتبة بحسب أهميتها على هذا النحو :

ــ الطبقة الأولى : تمثل أصحاب المهدي العشرة الذين عرفوا باسم «أهل الجماعة» .

ــ الطبقة الثانية : أهل الخمسين .

ــ الطبقة الثالثة : أهل السبعين .

ــ الطبقة الرابعة : الطلبة .

ــ الطبقة الخامسة : الحفاظ (صغار الطلبة) .

ـــ الطبقة السادسة : أهل الدار (وهم أفراد بيت المهدي) .
ـــ الطبقة السابعة : قبيلة هرغة (قبيلة ابن تومرت) .
ـــ الطبقة الثامنة : أهل تينملل (بطون متعددة من قبيلة مصمودة) .
ـــ الطبقة التاسعة : قبيلة كرميوة .
ـــ الطبقة العاشرة : قبيلة كنفيسة .
ـــ الطبقة الحادي عشر : قبيلة هنتاتة .
ـــ الطبقة الثانية عشر : قبائل ناصرت المهدي (ربعي ليست من قبيلة مصمودة) .
ـــ الطبقة الثالثة عشر : الجند المتطوعون الذين ينتمون الى قبائل مختلفة .
ـــ الطبقة الرابعة عشر : الغزات (وهم الموالي) .

فكانت طبقة العشرة بمثابة الوزراء للمهدي باعتباره رئيس الدولة الموحدية وزعيم الموحدين الروحي ، وتضم هذه الطبقة أسماء الشخصيات الهامة في الأيام الأولى : عبد المؤمن عمر أزناج ، عمر اينتي ، الخ ، ويذكر كتاب (الانساب) الصفات الخاصة لبعض أهل الجماعة ، فقد كان لعبد المؤمن دون غيره شرف ركوب جواد أخضر . وكان سليمان احضري يكتب الرسائل . وكان عمر اينتي يحمل ترس المهدي الخ .

وطبقتا الخمسين والسبعين معا ، بمثابة مجلس الأمة في عصرنا . وفي أيام الحرب كانت جميع الطبقات تشترك في القتال

بقيادة المهدي ثم بقيادة عبد المؤمن فيما بعد . وظل هذا النظام قائما ، حتى انتصر عبد المؤمن على دولة المرابطين وأسقط نظامهم وقضى على الثوار الذين قاموا في وجهه ثم تفرغ لقبائل المصامدة ، وأخذ يفكر في الحد من نفوذهم ، فانتهز فرصة موت أغلب صحابة المهدي العشر وأكثر أعضاء جماعتي الخمسين والسبعين ، ثم عمد الى تغيير نظام طبقات الأربع عشرة السالفة الذكر ، وصنف الموحدين ثلاث طبقات :

ــ الطبقة الأولى : فمن لايزالون على قيد الحياة من صحابة المهدي العشرة ، وأهل الخمسين وأهل السبعين ، والسابقين الأولين الذين سبقوا الى مبايعة المهدي ونصرته .

ــ الطبقة الثانية : من الموحدين الذين دخلوا في الدعوة الموحدية بعد موقعة البحيرة سنة 524 هـ ، حتى موقعة وهران سنة 539 هـ .

ــ الطبقة الثالثة : هم الذين دخلوا مع الموحدين ابتداء من موقعة وهران هذا النظام الجديد الذي وضعه عبد المؤمن لقبائل الموحدين يدل على عدله لأن السابقين الأولين جديرون بالصدارة وكذلك الذين انضموا الى الموحدين وهم مهزمون . في موقعة «البحيرة» ثم صمدوا في فترة الصراع بين الموحدين والمرابطين ، وهو صراع انتهى تقريبا بموقعة وهران التي قتل فيها تاشفين ــ سلطان المرابطين ــ سنة 539 هـ .

ولكن حقيقة هذا النظام فهو تقويض للنظام الطبقي القبلي الذي وضعه ابن تومرت .

ان تنظيم دولة واسعة الأرجاء تشمل بلاد المغرب ابتداء من طرابلس شرقا الى الأندلس غربا ، لم يكن أمرا ميسورا لعبد المؤمن بن علي ، لأن ذلك يتطلب منه توحيد عدد كبير من الدول المستقلة من جهة ، كما أن المؤسسات التي أنشأها المهدي للموحدين لم تكن تصلح لدولة كبيرة كتلك التي أوجدها عبد المؤمن وقد احتفظ عبد المؤمن في بداية الأمر ، بالمجلسين اللذين كان أسسهما المهدي مثل الجماعة ومجلس الخمسين الذي يضم ممثلي جميع القبائل .

ولكن عبد المؤمن بن علي أنشأ نظاما اداريا جديدا ، يتمثل في تغيير هيكل السلطة بحركة الموحدين ، اذ كانت منذ وفاة ابن تومرت عبارة عن السلطة شيوخ مجموعات القبائل الذين تجمعهم مجالس مختلفة على اختلاف بين هؤلاء الشيوخ ، وتلك المجالس في مدى الصلاحيات التي يتمتع بها كل مجلس أو كل مجموعة من الشيوخ . فقام عبد المؤمن بنقل هذا الشكل القريب من الديمقراطي في السلطة الى سلطة قريبة من سلطة الملوك ، يتمتعون فيها هو وأفراد أسرته بكل السلطة .

وقد نفذ عبد المؤمن هذا التغيير الجذري في السلطة من خلال مجموعة من الاجراءات والعمليات المتتالية . بدأت أعمال عبد المؤمن بادخاله للقبائل العربية البدوية الى المغرب الأقصى بعد

أن كانت مواطنها لا تتجاوز أواسط الجزائر في منطقة بوسعادة .
وعندما هزمهم الموحدون أخذ يقنعهم بدخول المغرب الأقصى طوعا أو أنه أخذ ألفا من كل قبيلة من هؤلاء العرب . ولعل السبب الذي كان وراء هذه العملية هو الاستعانة بهم للجهاد في الأندلس .. والحقيقة أن السبب في استقدامهم الى بلاد المغرب في هذه الظروف كان الخلاف الحاد في صفوف الموجدين .

أما السبب الذي تورده الروايات لهذه العملية فهو أولا الاستعانة بهم في الجهاد في الأندلس .

ويبدو أن سبب استقدامهم في هذه الظروف الى المغرب الأقصى هو الخلاف الذي وقع في صفوف مشيخة الموحدين أثر الحملة التي قضت على ملك الحماديين وأظهر فيه أخوان من اخوة المهدي مع بعض شيوخ آخرين عداوة سافرة لعبد المؤمن ، وربما أدخل هؤلاء العرب ليكونوا تحت تصرفه كقوة تدين بالولاء لعبد المؤمن ، يمكنه استخدامها لمحاربة أعدائه في الداخل علاوة على استخدامها في الجهاد بالأندلس .

تعيين ولي العهد :

بعد أقل من ثلاث سنوات من اعتماده على هذه القوة الجديدة خطا عبد المؤمن خطوته الكبيرة نحو حصر السلطة في أسرته ـــ اذ عين أحد أبنائه وهو « محمد » لولاية العهد . الا أنه ما فتيء أن رأى عدم صلاحية محمد للخلافة فأزاله من ولاية

العهد ، وعين محله أخاه « يوسف بن عبد المؤمن » وبهذا الاجراء يكون عبد المؤمن قد سد لأول مرة وراثة الملك ، وأدخل تعيين الخلفاء في الدولة .

وقد شجعه على هذا العمل شيوخ العرب . وكانت له ردود فعل معاكسة من طرف قبائل مصمودة ومجاهرة الكثير من الموحدين اياه باستكثارهم لكثير من أعماله . بل تغالى بعضهم منكر في اغتياله . ولهذه الظروف الصعبة التي أحاطت به لم يجد مناصا من العمل على استقدام قبيلة « كومية » من الجزائر ليحمي بها ظهره ، وكانت نحو أربعين ألفا .

تعيين الولاة :

ومضى عبد المؤمن قدما في سبيل استئثار أسرته بحكم الدولة والتمكين لنفسه بايجار الموالين ، وذلك عن طريق اعطاء حكم المناطق المختلفة لأبنائه : « فولى السيد أبا حفص تلمسان وأحوازها وأصحبه أبا محمد عبد الحق واليين ، ومن الكتاب الفقيه أبا الحسن عبد الملك بن عياش . وولى السيد أبا سعيد سبتة وطنجة وأصحبه أبا محمد عبد الله بن سليمان وأبا عثمان سعيدي بن ميمون الصنهاجي ، ومن الكتاب الفقيه أبا الحكم هرموس .. وولي السيد أبا محمد عبد الله بجاية وأعمالها وأصحبه أبا سعيد يخلف بن الحسن .

وولي السيد أبا يعقوب يوسف اشبيليه وشلف وأحوازها . وولي الشيخ أبا زيد بن مجيب قرطبة وأعمالها » .

ويشرح لنا المؤرخ ابن الأثير أسلوب عبد المؤمن العجيب الذي استعمله لتعيين أبنائه على الولايات بدلا من شيوخ الموحدين فيقول : « كان يتعذر على عبد المؤمن أن يعزلهم فأخذ أولادهم وتركهم عنده يشتغلون في العلوم فلما تمهروا فيها وصاروا يقتدي بهم قال لأبنائهم : اني أريد أن تكونوا عندي أستعين بكم على ما أنا بصدده ويكون أولادكم في الأعمال لأنهم علماء فقهاء . فأجابوا الى ذلك وهم فرحون مسرورون . فولى أولادهم ووضع عليهم بعضهم ممن يعتمد عليه . فقال اني أرى أمرا عظيما قد فعلتموه فارقتم فيه الحزم والأدب فقالوا : ما هو ؟ فقال أولادكم في الأعمال وأولاد أمير المؤمنين ليس لهم منها شيء مع ما فيهم من العلم وحسن السياسة واني أخاف أن ينظر في هذا فتسقط منزلتكم عنده . فعلموا صدق القائل . فحضروا عبد المؤمن وقالوا نحب ان نستعمل على البلاد السادة أولادك . فقال لا أفعل . فلم يزالوا حتى فعل ذلك لهم لسؤالهم أياه » .

ويضيف صاحب كتاب « الحلل الموشية » الى ما ذكره ابن الأثير من أن عبد المؤمن بعد ما عين أولاده على الولايات سمى بجانبهم أبناء شيوخ الموحدين . وفي كل ولاية نجد كاتبا بجانب السيد والشيخ . ان هذا التعاون التام بين أفراد الأسرة الحاكمة وشيوخ الموحدين أصحاب المهدي وأولادهم هو الطابع المميز للتنظيمات الادارية في الدولة الموحدية على عهد عبد المؤمن بن علي .

ويتضح مما سبق ذكره أن الخليفة عبد المؤمن كان منظما بارعا ، فقد جعل الشيوخ حوله كمستشارين له . وربما تحاشى بذلك استغلالهم في المناطق لو أقاموا فيها وتحكمها ، نظر لمكانتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وقد هيأ لهؤلاء الأبناء تربية مناسبة تجعلهم أهلا للقيام بمهامهم في الحكم وهي مهام ادارية وعسكرية وثقافية ، عن طريق مؤسسة الاطارات في وقتنا الحاضر ، وهي مؤسسة أو مدرسة تسهر على تكوين الطلبة . والطلبة صنفان حسب قول عبد الواحد المراكشي . فهناك أهل كل من الأقطار المختلفة ، وخاصة أهل النظر ، وهم يستدعون من مناطقهم ليحضروا مجلس الخليفة ويسمون بطلبة الحضر .

أما الصنف الآخر فهو ممن عني بالعلم من الموحدين ويسمون طلبة الموحدين (عبد الواحد المراكشي — المعجب ص 342) .

وعلى الصنف الأخير تركز جهد عبد المؤمن لربطهم بشخصه عن طريق التربية والتكوين اللذين يتحدث عنهما صاحب كتاب «الحلل السندسية» بقوله : «وكان يدخلهم كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل القصر فيجتمع الحفاظ فيه وهم نحو ثلاثة آلاف كأنهم أبناء ليلة من المصاورة وغيرهم قصد بهم سرعة الحفظ والتربية على ما يريد فيأخذهم يوما لتعليم الركوب ويوما بالرمي بالقوس ويوما بالعلوم في بحيرة صنعها خارج بستانه ويوما يأخذهم بأن يجذفوا على قوارب وزوارق صنعها لهم في تلك

الحروب . فعذبوا بهم الآداب تارة بالعطاء وتارة بالأدب وكانت تعطيهم بسائر مؤنتهم من عنده ويحبهم ويعشقهم كمثلك . ومما تحكي عن المراد فيهم عزب بهم أشياخ مصامدة عن ولاية الأعمال والرياسة وقال لعامة أهل مملكة صنعوا عن (الأمر) وأبعدهم عنه في المشورة» (الحلل الموشية ص 125) .

وبهذه الإجراءات الإدارية الحكيمة ، كسر عبد المؤمن شوكة القبائل سياسيا . فلم يعد هيئات الطلبة (الجماعة) والخمسين والسبعين التي ألفها المهدي ممثلة لقبائل الموحدين ، واتخذها مجالس استشارية — أي تعمل في دائرة الدولة . ولكن رغم هذا التغيير ، فإن عبد المؤمن أبقى على النظام القبلي من الوجهة العسكرية ، ولم يغير ترتيب القبائل الذي وضعه ابن تومرت ، باستثناء وضع قبيلة كومية في الترتيب العسكري بعد قبيلة «هرغة» .

1 — الجيش :

أولى الخليفة عبد المؤمن الجيش والأسطول اهتماما كبيرا فتطور عدده وأصبح يمثل قوة كبيرة في ميزان القوى الحربية في العصور الوسطى . وكان الجيش الموحدي في بداية الأمر لا يضم إلا قبائل الأطلس الأكبر ، ولكن في فترة تالية انضمت إليه عناصر جديدة مثل قبيلة كومية (وهي قبيلة عبد المؤمن) وقبائل بني مصلوا وبني يلومي وبني عبد الواد ، وهي من قبائل زناتة بالمغرب الأوسط ، إلى جانب ضباط الجيش المرابطي وبني

علاوة الذين حملوا للجهاد في الأندلس بعد فتح افريقية ، وكذلك العبيد والجند البصري والرماة الكوفيين الذين قدموا من مصر .

وفيما يتعلق بإدخال قبيلة كومية كعنصر جديد في صفوف الجيش الموحدي نقتبس نص ابن أبي زرع في كتابه «روض القرطاس» ، الذي حدد فيه أبعاد هذا المشروع الحربي بقوله : «بعد مؤامرة أخوي المهدي أحس الخليفة بأنه يعيش شيئا في خطر وأن هذا الخطر الذي يتعرض له جاء خصوصا من صنهاجة أحبائه ليس له لا أخ ولا حارس من قبيلته فكتب في خفية إلى أشياخ قبيلة كومية ، قبيلته ، وأمرهم بالقدوم عليه وأن يركب كل من بلغ الحلم ويأتون في أحسن زي وأكمل عدة وعبئة وبعث إليهم بالأموال والكسى» .

اجتمع أربعون ألفا ، فأقبلوا إلى أمير المؤمنين متركشين برسم الخدمة بين يديه ونشر طبوله بهم . فتشوش المغرب لقدومهم وتناول الناس الأقاويل . فسار الجيش حتى وصل وادي أم الربيع . فسمع الموحدون بقدومهم . فارتاعوا منهم وعرفوا أمير المؤمنين عبد المؤمن فأمر الشيخ أبا حفص عمر أن يخرج إليهم في جماعة من الموحدين وأشياخهم ليعرفوا خبرهم . فسار حتى تلقاهم بوادي أم الربيع فقال لهم من أنتم أسلم أم حرب ؟ فقالوا له نحن سلم نحن من أهل عبد المؤمن بن علي نحن كومية أردنا زيارته قصدنا زيارته والسلام عليه . فرجع أبو حفص وأصحابه فعرف أمير المؤمنين بخبرهم فأمر عبد المؤمن جميع الموحدين أن يخرجوا

الى لقائهم فاحتفلوا بذلك وكان بمراكش يوم دخولهم عيدا من الأعياد . فرتبهم عبد المؤمن في الطبقة الثانية وجعلهم في تينمل في ثاني درجة وقربهم من نفسه وجعلهم بطانة يركبون في ظهره وينبهون على رأسه ويمشون بين يديه اذا خرج» .

وكان جيش عبد المؤمن يبلغ نحو نصف مليون جندي أثناء الحروب الجهادية ضد النصارى .

ويتبين مما سبق ذكره أن الجيش الموحدي كان يعتمد أساسا على القبائل فتقدم كل قبيلة ما فرض عليها من مشاة وفرسان عند الاستنفار العام . الى جانب نظام التطوع ، حيث كانت تحشد أعداد ضخمة من الراغبين في الجهاد ويسمون بالمطوعة ومن أساليب عبد المؤمن الحربية ــ أنه كان يدفع بالمتطوعين في بدء المعركة قصد ارهاق العدو حتى اذا ما التقى الجيش النظامي به ، كسب النصر سهلا ميسورا .

وباتساع دولة الموحدين من الناحية الجغرافية ، اتسع أيضا نطاق الحروب بينها وبين النصارى في المغرب والأندلس ، ولم تعد القبائل مصدرا كافيا لتأليف الجيوش الجرارة التي يتطلبها الجهاد في سبيل الله ، أخذ الخليفة عبد المؤمن في استمالة عرب بني هلال ــ كما سبقت الاشارة الى ذلك ــ واستطاع أن يؤلف من الهلاليين فرقا بالجيش الموحدي .

وكان على رأس الجيش الموحدي قادة محنكين ، لعل أهمهم عبد المؤمن نفسه الذي انتصر في جميع المعارك التي قادها ويليه

الشيخ أبو حفص عمر الملقب « بسيف الله » وعبد الرحمن بن زكو ، فضلا عن القادة الكبار من أبناء الخليفة أمثال : أبو محمد ، وأبو حفص ، وأبو سعيد ، وأبو يعقوب .

وقد اشتهر عبد المؤمن بالاستماع الى آراء قادته ، والانتفاع بتجاربهم في رسم خططه ، فكان قبيل الحرب يعقد مؤتمرا حربيا لدراسة أنجع السبل الى وضع خطة الغزو ، وكسب المعركة .

وكانت أسلحة الجيش كثيرة ومتنوعة منها الأسلحة الفردية كالسيف والرمح والقوس والعصى والبلطة ، مع وسائلها الدفاعية كالترس والدرع والنوع الثاني هو الأسلحة والأبراج ورأس الكبش .. الخ .

وكان من عادة جيش الموحدين ، أثناء الغزو ، أن يشرع في السير بعد صلاة الصبح ، ويعلن عن ذلك بواسطة طبل مستدير الشكل قطره خمسة عشر ذراعا أي مايساوي 30 م وكان يصنع من خشب أخضر اللون مذهب ويسمع صوته على مسافة نصف يوم من مكان مرتفع لا ريح فيه .

وذكر أحد المؤرخين العرض العسكري الذي قام به عبد المؤمن في قريته « تاجرا » وما استعمل فيه من طبول قال « رأيت أكثر من مئتي طبل يخيل لسامعها اذا ضربت أن الأرض من تحته تهتز ويحس قلبه يكاد يتصدع من شدة دويه »

وكانت الرايات تلعب دورا كبيرا في قيادة الجيش في الحرب والاستعراضات فقد بلغ عدد الرايات في الاستعراض سبعون

حوالي خمسمائة راية . وكانت عملية الغزو ، تتم في سرية وكتمان . فحسب رواية البيدق فان عبد المؤمن لما عزم على فتح المملكة الحمادية ، « قطع الأسفار من الطرق ومنع الا يسافر أحد من سلا الى مكناسة ولا من مكناسة الى فاس ، ومن فاس الى تلمسان وشدد في ذلك » . أما المؤرخ ابن الأثير فيورد رأيا مشابها لما قاله البيدق يقول : « لما أراد عبد المؤمن قصد دولة بني حماد سار من مراكش الى سبتة سنة ست وأربعين (546 هـ) . فقام بها مدة يعمل الأسطول ويجمع العساكر القريبة منه وأما ما هو على طريق بجاية من البلاد فكتب اليهم ليتجهزوا ويكونوا على الحركة أي وقت طلبهم والناس يظنون أنه يريد العبور الى الأندلس فأرسل في قطع السابلة عن بلاد شرق المغرب برا وبحرا وسار من مدينة سبتة في صفر سنة سبع وأربعين فأرسل السير وطوى المراحل والعساكر تلقاه في طريقه فلم يشعر أهل بجاية الا وهو في أعمالها » .

وينسب الى عبد المؤمن ابتكار خطة حربية جديدة ، تعرف باسم « خطة المربع الموحدي » أو « الخطة التربيعية في الحرب » . واشتهرت كطريقة قتالية فيما بعد وأضحت عماد خطط الدفاع الموحدي في الميدان المكشوف ، وأفادنا بوصف هذه الطريقة القتالية في الحرب صاحب كتاب « الحلل الموشية » نقلا من ابن اليسع يقول موضحا أسلوب العمل فيها : « أن نصنع دارة مربعة في البسيط يجعل فيها من جهاتها الأربع صف من الرجال ، بأيديهم القنا الطوال ، والطوارق

المانعة ، ومن ورائهم أصحاب الدروق والحراب صفا ثانيا ، ومن ورائهم أصحاب فيها الحجارة صفا ثالثا ، ومن وراء هؤلاء الرماة صفا رابعا وفي وسط المربعة ترابط قوى الفرسان» . وفي قلب هذا المربع يستقر القائد أو الخليفة الذي كثيرا ما يقود المعركة بنفسه تحيط به هالة من الفرسان والفدائيين .

ومتى تم تنظيم الجيش الموحدي على النحو السابق ، وتأهب للقتال ضربت قبة الخليفة الحمراء في موضعها بالقلب ورفع عليها العلم الموحدي الأبيض يحيط بها الحرس القوي من المشاة والفرسان .

وكانت مهمة الاشراف على الجيش الموحدي ــ في عهد عبد المؤمن ــ تسند الى ديوانين اثنين هما : ديوان العسكر الذي يرأسه أحد القادة العسكريين أما الديوان الثاني فيعرف باسم : ديوان التمييز ــ وتنحصر وظيفته في اختيار الجند الصالحين للحرب ، وتتم هذه العملية قبل اعلان الحرب أو الغزوة ، كما أنه كان ينعم بالأعطيات على الجند الذين فازوا بصلاحيتهم للقتال . ويلحق بهذين الديوانين السابقين ــ ديوان الانشاء الخاص بالجيش .

2 ــ اهتمام عبد المؤمن بالاستعراضات العسكرية :

كان الخليفة القائد يحب جيشه حبا عظيما . لذلك كان يعمل على تقويته وتجهيزه بالعدد والعتاد اللازمين ويعني عناية خاصة بالتنظيم ، يتجلى لنا هذا الاهتمام من هذا النص الذي

ذكره المراكشي صاحب كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» وهو عبارة عن حديث دار بينه وبين وزيره محمد بن أبي جعفر قال : «قال : دخلت على عبد المؤمن وهو في بستان له قد أينعت ثماره ، وتفتحت أزهاره ، وتجاوبت على أغصانها أطياره وتكامل من كل جهة حسنه ، وهو قاعد في قبة مشرفة على البستان ، فسلمت وجلست ، انظر يمنة ويسرة ، متعجبا مما أرى من حسن ذلك البستان . فقال لي : يا أبا جعفر ، أراك كثير النظر الى هذا البستان ! قلت : يطيل الله بقاء أمير المؤمنين ، والله ان هذا لمنظر حسن فقال : يا أبا جعفر المنظر الحسن هذا ؟ قلت : نعم فسكت عني فلما كان بعد يومين أو ثلاثة ، أمر بعرض العسكر آخذي أسلحتهم ، وجلس في مكان مطل وجعلت العسكر تمر عليه قبيلة بعد قبيلة وكتيبة أثر كتيبة ، لا تمر كتيبة الا والتي بعدها أحسن منها جودة سلاح ، وفراهة خيل ، وظهور قوة ، فلما رأى ذلك التفت الي وقال : يا أبا جعفر ، هذا هو المنظر الحسن ، لا ثمارك ولا أشجارك» .

3 ــ الأسطول البحري :

اهتم عبد المؤمن بالبحرية ، ولم يكتف بما انضمت اليه من البحرية المرابطية والحمادية ، بل عمل على تطويرها وتدعيمها . فقد اعتنى بانشاء الأساطيل حتى بلغ الأسطول المغربي في عهده أربعمائة قطعة ، وكانت هذه النهضة البحرية سببا في مجد البحرية الموحدية التي ذاعت شهرتها في الآفاق ، لاسيما في عهد حفيده

« يعقوب المنصور » الذي طلب الاستعانة بأسطوله البطل « صلاح الدين الأيوبي » . وكانت قطع الأسطول الموحدي موزعة بين أهم موانيء الدولة ، منها ثمانون بالأندلس ، ومائة بشمال المغرب ،ومائة وعشرون في المهدية ، وفي افريقية والجزائر مائة . وكانت أشهر الموانيء في هذه الفترة هي : قادس ، سبتة ، المهدية ، باديس ، وهران ، طنجة ، عنابة ، هنين . وكانت دور صناعة السفن موزعة هي الأخرى ، فنجد دار الصناعة بقصر مصمودة وتختص بصناعة المراكب والحراريق المعدة للنقل الى الأندلس . أما دار الصناعة بالحبلات قرب وادي فاس فكانت تهتم بصنع القوارب وصغار المراكب . أما أهم القطع المستعملة آنذاك فهي : المراكب ــ الحراقات وكانت تحمل المنجنيقات ــ المسطمات وهي عبارة عن سفن ضخمة تجري وراء السفن الصغيرة لانقاذها في حالة الخطر ــ الزوارق ــ الشلنديات وهي سفن كبيرة لحمل الأسلحة والجنود . الطرادات وهي سفن صغيرة شديدة السرعة ــ الشونات وهي مراكب كبيرة تنصب فيها أبراج الدفاع .

ومن كبار قادة الأسطول الموحدي في عهد عبد المؤمن بن علي ، عبد الله بن سليمان وكان أمراء البحر يتلقون تدريبا خاصا في التجذيف وقيادة السفن قبل أن يعهد اليهم مهمة القيادة ، وكانوا يشتركون في هذا التكوين مع سائر الحفاظ الذين كان يعين منهم الولاة والعمال وقواد الجيش ، وكان يجري تدريبهم في بحيرة عظيمة بقصر الخليفة بمراكش كما أسلفنا القول .

وكان الأسطول مثل الجيش قويا ، وبفضله أحرز الموحدون انتصاراتهم بالأندلس والمهدية ، وبقية الساحل الافريقي ، كما أنه كان جسرا يربط المغرب بالأندلس ، فتنقل بواسطة الجنود والمؤن والعتاد بين العدوتين .

4 — الوزراء :

كان المهدي بن تومرت يتخذ عشرة أشخاص من تابعيه المخلصين بمثابة الوزراء ، وكان يطلق عليهم جماعة العشرة ، وأن عبد المؤمن ألغى هذا النظام كما ألغى كل الجماعات الاستشارية ، لذلك كان من الضروري أن يستعين بشخص أو أكثر في ادارة دولته الواسعة .

وكان أبو حفص عمر الهنتاتي أول من وزر للخليفة عبد المؤمن ، باعتباره كبير شيوخ الموحدين . ولما استقرت الأمور استوزر عبد المؤمن كاتبه الأول أبا جعفر بن عطية وهو من أصل عربي ، وظل ابن عطية يجمع بين وظيفتي الوزارة والكتابة ، الى أن قتله عبد المؤمن في سنة 553 هـ مع مصادرة أمواله .

ثم عين في الوزارة — بعد ابن عطية — شخص كومي يسمى « عبد السلام » وقد استمرت وزارة عبد السلام الكومي هذا الى أن أرسل اليه عبد المؤمن من قتله خنقا في سنة 557 هـ . وبعده انتقلت الوزارة الى « عمر بن عبد المؤمن » الذي ظل بها حتى توفي الخليفة سنة 558 هـ .

وعن دور الوزير في عهد الخليفة عبد المؤمن يقول عبد الله علام : « كان وزير عبد المؤمن يمثل رئيس الوزراء في عصرنا

الحاضر ، اذ كان الهيئة التنفيذية للدولة . ويشرف بنفسه على أشغال البرين أو العدوتين (المغرب والأندلس) وبجانبه بعض الرجال المخلصين الذين يتولون ادارة الدولة — وكانوا بمثابة الوزراء في عصرنا وهم : متولي الجابي (المختص بتحصيل الضرائب والجزيات) . ومتولي النفقات والمحاسبة (يشبه وزير المالية) ومتولي أعمال المستخلص وصاحب ديوان الأعمال المخزنية الذي يتمتع بسلطة كبيرة فهو يراقب ايراد الدولة ويشرف على الدخل والمنصرف وله الحق في الاشراف على العمال ومحاسبتهم ، والقبض عليهم وله معاونون بجميع الأقاليم يسمون المشرفين ، والمشرفون بدورهم معاونون . مثل خازن المال ، وخازن الطعام . وكثير ما تعرض هؤلاء المشرفون للاتهامات والمطاردات والحساب .

ومن المناصب الكبرى أيضا — منصب صاحب الشرطة ، الذي كان ذا أهمية خاصة في فترات الاضطراب والفوضى . كما كان أداة الخليفة عبد المؤمن في اقرار العدل . وقمع الظلم ، والتنكيل بالخارجين على الأمن والاستقرار .

5 — القضاء :

كان من المناصب الدينية الهامة في عهد عبد المؤمن بن علي ، وكان رئيس القضاء يعرف « بقاضي الجماعة » ويعين بقرار من الخليفة ، فلم يكن لأحد سلطان عليه سوى الخليفة ، ومن مهامه الاشراف على قضاء الأقاليم من حيث تعيين القضاة

وتنقلاتهم ومحاسبتهم على أعمالهم ، وعزل المستهترين منهم . وكان الأندلسيون يستأثرون بمناصب القضاء في بلادهم ، ولذلك كان الخلفاء يعينون من فقهاء الأندلس قضاة بالمغرب في أغلب الأحيان . ولا يلقي ذلك أي اعتراض من فقهاء المغرب الذين كانوا يعترفون بأستاذيتهم في علوم الدين على وجه الخصوص .

ويلحق بمناصب القضاء منصب صاحب الشورى ، الذي كان يعين فيه من الفقهاء الممتازين أيضا ، وتقتصر مهمة صاحب الشورى بافتاء الناس مما جعل القاضي أعظم هيبة منه . وهناك بالاضافة الى صاحب الشورى مساعد يدعى «صاحب الأحكام» وله الحق في ابداء الرأي في الأحكام الشرعية .

وهناك وظيفة المحتسب الذي كان يتمتع بسلط كبيرة في الأسواق فهو المشرف على صحة المكاييل والموازين وعلى سلامة السلع ونظافتها وضبط التعامل . أما وظائف الصلاة فكان يرأسها «صاحب الصلاة» الذي كان يعين بقرار من الخليفة مباشرة ، وليس للولاة سلطة عليه .

وكانت مهمة صاحب الصلاة تعيين أئمة المساجد ، ومدهم بارشاداته وتفتيش أعمالهم ، والنظر في شكاياتهم . وكان يختار صاحب الصلاة من الفقهاء الخطباء ، وكثيرا ما كان يتقدم لالقاء الخطب في الجمع والأعياد بالمساجد الكبرى .

المراجع

1 — ابن أبي دينار القيرواني — المؤنس في ذكر بلاد افريقية وتونس — تونس 1967 .

2 — ابن أبي زرع — الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس الرباط 1936 .

3 — ابن الأثير — كتاب الكامل في التاريخ .

4 — أشباخ يوسف — تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين — القاهرة 1958 .

5 — البيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجي) — أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين — باريس 1928 .

6 — ابن خلدون — كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر — بيروت 1959 .

7 — ابن خلكان — وفيات الأعيان وأنباء الزمان — القاهرة 1984 .

8 — سالم عبد العزيز (دكتور) — المغرب الكبير — العصر الاسلامي — القاهرة 1966 .

9 — السلاوي (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري) — الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى — الدار البيضاء 1954 .

10 — ابن صاحب الصلاة — المن بالامامة على المستضعفين — دار الأندلس — بيروت 1964 .

11 — ابن عذاري — البيان المغرب — بيروت 1950 .
12 — علام عبد الله (دكتور) .
— الدعوة الموحدية بالمغرب — القاهرة 1964 .
— الدولة الموحدية بالمغرب — القاهرة 1971 .
13 — عنان (عبد الله) — عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس — القاهرة 1964 .
14 — ابن القطان — نظم الجمان (تحقيق) د. محمود علي مكي .
15 — المراكشي (عبد الواحد) — المعجب في تلخيص أخبار المغرب — القاهرة 1945 .
16 — محمد ولد دادة (دكتور) — مفهوم الملك في المغرب — بيروت 1977 .
17 — روجيْ لي تورنو — حركة الموحدين في المغرب (ترجمة د. أمين الطيبي) ليبيا — تونس 1928 .
18 — بورويبة رشيد — عبد المؤمن بن علي (سلسلة الفن والثقافة) — الجزائر 1976 .

الفهرس

الفصل الأول :

الفصل الثاني :

الفصل الثالث :

الفصل الرابع :

الفصل الخامس :

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية ، الجزائر
١٩٩١